
عبير الدفلى
رواية
للكاتب: سليمان بن يوسف
تقديم
حسن بن عثمان

عبير الدفلى

رواية

عبير الدّفلى

رواية

للكاتب: سليمان بن يوسف

تقديم
حسن بن عثمان

الطبعة الأولى – أكتوبر 2007

محتوى الرّواية

إهداء

إلى روح والدي الرّاحل
إلى أمي الغالية
وزوجتي وأبنائي
إلى أشقائي و زملائي
إلى كل من يقرأ لي رغم رداءة خطي
ولا يبخل علي بالنصح والنقد البناء..

سليمان

تمهيد

هذه الرواية، تراكمت أحداثها وشخوصها ما بين الحقيقة والخيال والذكريات والأحزان والحنين، لترسم ملامح سامح/الإنسان، في ترحاله بين الماضي الحبيب والحاضر الغريب والقادم الرهيب..

إنها جولات مد وجزر.. كر وفر.. فيها جهد الحياة وشوق الشباب وذكريات الطفولة.. وشقاوة الواقع وآلام الحقيقة وصدماتها المريرة.. وكان فيها مبدأ الهم وأصل المأساة..واستقبال المصير..

لوحة مضرجة بآثار الحياة ودروب الحياة من متاهات الإنحسار في غياهب العدمية والإكتئاب، والإنتحار بكل أشكاله .. في شخوصها بعض من عرفت.. وفيها أشواق حدثتني نفسي بها وغربة، ليست غريبة عني.. وفيها بساطة ورحلة فتى حائر تفطن يوما إلى أنه ضل طريقه مرتين.. مرة إلى بلاط صاحبة الجلالة.. ومرة إلى عقله وقلبه..

المؤلف
حي الصحافيين
27 أوت2007

تصدير

خدعوها بقولهم حسناء والغواني يغرهن الثناء
أتراها تناست اسمي لما كثرت في غرامها الأسماء
إن رأتني تميل عني كأن لم يكن بيني وبينها أشياء

أحمد شوقي
-أحسب أنه كان يعني صاحبة الجلالة-

مقدمة

عَبيرُ الدْفلى . . . أو تَعبيرُها المرّ!

حسن بن عثمان

حين نراجع بعض المصادر اللغوية العربية نجد أن الدِفْلى: شجر مُرٌّ أخضر حَسَن المَنْظر يكون في الأودية، قال الأزهري: هي شجرة مُرَّة وهي من السُّموم، وفي الصحاح: نبتٌ مُرٌّ يكون واحداً وجمعاً يُنَوَّن ولا ينوَّن، فمن جعل الألف للإلحاق نوَّنه في النكرة، ومن جعلها للتأنيث لم ينوِّنه. وقال ابن بري: الدَفْل القَطِران.

إذن شجرة الدفلى خضراء وحسنة المنظر، ولكنها مُرّة وهي من السّموم ولا يؤكل منها شيء.

وحين نراجع الذاكرة الشعبية تسعفنا بهذين السطرين من الشعر الملحون اللذين يجريان مجرى المثال والحكمة لدى العامة والخاصة:

لا يعجبك نوار دفلى ... في الواد عامل ظلايل
ولا يعجبك زين طفلة ... حتى تشوف الفعايل

وهنا فإن الذاكرة الشعبية لا تتناقض مع المعجم التراثي في تعريف الدفلى، فالاثنان يتفقان ضمنيا على جمال الدفلى وعلى ضرورة الاحتراز منها والاحتياط. ومع ذلك لا نظفر بأي شيء يحيل على رائحة شجرة الدفلى، مذاقها مرّ ولكن ماذا عن رائحتها ؟ ماذا عن "عبيرها" وفق ما جاء في عنوان رواية سليمان بن يوسف؟

قلت رواية مجاراة للتجنيس الذي نسبه الكاتب لنصه وأثبته على الغلاف الأول، وتواطؤا معه وسكوتا عن شروط الرواية وفق سلالتها وإبداعاتها ومنجزاتها ومقترحاتها وانفتاحاتها، وما اتفق وأطلعنا عليه من نماذجها في الشرق والغرب والشمال والجنوب.

هذه الرواية المخصوصة لصاحبها تتطلب من قارئها منذ العنوان إلى آخر جملة فيها الدخول مع كاتبها في تعاقد غريب عجيب بنوده التواطؤ والصبر وإطفاء الضوء... فالدفلى حتى لو كان لها في عنوان الرواية عبير فوّاح فهي في الواقع السردي شديدة المرارة وسامة.

أنا شخصيا مصاب بزكام مزمن ولا أشم الروائح مهما كان طغيانها أو كانت حدّتها، أكانت من العطورات أو من العفونات، ولعلّ في ذلك خيرا لي من حيث لا أدري، أو لعلّني أشبه، بطريقة معكوسة، "غرونوي" بطل الرواية الفذّة لباتريك زوسكيند "عطر: سيرة قاتل"... لذلك فان رائحة شجرة

الدفلى وعبيرها لا يعنيني، وإنما هو تعبيرها، بالأحرى، الذي يهمّني. وكم أن عنوان هذا النص السردي، الذي كثيرا ما يتخلله الشعر بسابق إصرار وترصّد، يتطابق مع المتن الحكائي ويُخبر عنه، فالمتن هو الآخر شبيه بشجرة الدفلى وبصفاتها، فيه من الحسن والجمال مثلما فيه من كثير المرارة والسموم، وهو في كل الأحوال قاتل فيما لو رمنا تلخيصه أو التنظير له أو تناوله سواء بالملعقة أو بالقلم، مواربة أو مباشرة.

نص حميمي يتنكر في زي رواية وينتحل جنسها، مثلما يتنكر سليمان بن يوسف في شخصية سامح بن يوسف ويباشر النبش في سوانح من الذاكرة وُشِمَت على الجسد وحددت المسار وشكلت التجربة الذاتية لصاحبها، وفي ذلك بعض فيض من سيرة بلاد، اجتماعيا وسياسيا وثقافيا وفنيا، كل ذلك مع العمل المتفاني لفتح كوّة على تجارب في الصحافة والإعلام والثقافة والوعي السياسي، ليس لفرد بحصر المعنى، وإنما لنوعية من جيل عمل في الصحافة الحزبية الرسمية، وفيها ترعرع واكتسب ما اكتسب من زوايا نظر ومن خبرة في الصحافة وفي الحياة. فما هي نوعية تلك الخبرة يا ترى؟ من الممكن أن نعثر على إجابة أو ملامح إجابة في صلب "عبير الدفلى".

إن ما يضفي أهمية خاصة على هذا النص السردي مسار صاحبه الذي بدأ احترافه الصحفي سنة ١٩٨٧ في جريدة "الحرية" الناطقة بلسان التجمع الدستوري الديمقراطي، الحزب الحاكم في تونس، وهكذا فأن عمر سليمان بن يوسف الصحفي الاحترافي هو من عمر سنوات ما اصطلح عليه في الأدبيات السياسية التونسية وغير التونسية بـ "عهد التغيير". وفي السياق لا يبخل الكاتب بشذارات ولمحات دالة، فيما لو أحسنّ الإصغاء، تنبئ على طراز من الصحفيين، والمثقفين أيضا، الذين انتسبوا لعهد التغيير وتكلموا بلسانه، سواء بتفويض منه أو بغير تفويض. ومن هنا تكمن، من الكمون،

طرافة هذا النص الذي يشبه صاحبه في تردده بين مستويات من التعبير تبدو متنافرة أحيانا، ولا يرغب سليمان بن يوسف أن يبلغ بأي منها إلى المنتهى ويوفيها حقها، لذلك نسمع بوضوح صوت الصحافي فيه يلوذ بالشاعر والشاعر فيه يلوذ بالسارد والسارد بالحزبي والحزبي بالبيئي والبيئي بالسياسي والسياسي بالمثقف والمثقف بالإيديولوجي والإيديولوجي بالنفعي والنفعي بالرجل الصالح التقي والرجل الصالح التقي بالواجب العائلي... وكان الكاتب هنا ينمّط نفسه لتخبر بكفاءة عن مرحلة وعن جيل وعن ذهنية ومسلكية... كل ذلك ينطوي عليه النص السردي "عبير الدفلى" فيما لو أحسنا القراءة وانتبهنا إلى زلات

الالكلام وما يفلت من اللغة وما يتساقط من السرد .
أليست لغة في كل أحوالها ليست ملكا لمن يتكلم بها أو يكتب، وإنما لها حياتها الخاصة ومكرها وتلوّنها ودسائسها ووشاياتها، وهي تقول باستمرار أقل أو أكثر مما نرجو لها أن تقول، ومن المستحيل أن تقول ما نطلب منها أن تقول، أو ما في نيتنا أنها قالته.

حسن بن عثمان

حومة الدفلى

1

كان يوسف والد سامح، أكبر رجال الحومة، وأولهم مغادرة فجرا إلى عمله، خرج هذا الصباح يلفه ضباب الفجر، وهو ينشد الوصول لباب المتجر قبل وصول صاحب المحل ولا أية شاحنة بضائع لتفريغ كمية السلع في الوقت المناسب..

وحي الدفلى، كما يبدو في السبعينات، شبكة من الأزقة في جانب مدينة ساحلية، تقطنها عشرات الأسر التي تعيش في ظروف بسيطة،جل أربابها يكدحون ويزاولون مهنا تتراوح بين التجارة والصيد والعمل بالميناء.. ومع ارتفاع درجات الحرارة، تتفاعل الروائح القادمة من المصب الممتد خلف سكة المترو، في ظهر حي الدفلى - حيث يسكن الشاب سامح وحيث ولد- مع تموجات الغازات التي تطلقها أكوام القمامة الملقاة في مدخل كل زقاق تحت وطأة القطط العابثة الباحثة عن غنائم بين بقايا الأطعمة، روائح منفرة لم تعد تعكر صفو حياة الناس، هي لا تشعرهم قط بالغثيان، ولا تسبب أي ضيق لأهل الحي الذين اعتادوا على عفونة الزبالة، حتى بعد أن تجمع أيادي المنظف البلدي معظمها، ليتناثر ما تبقى قرب أشجار الدفلى المشكلة وشاحا يحوط الحي من جانب الرصيف الخلفي، تنتصب كائنا غريبا يبدو لا مبرر له، هذا الصباح، فتحت حومة الدفلى عيونها باكرا على وقع أسطل الخالة رحمة توقعها أرضا خارج البيت، وكأنما تتعمد وضعها سطرا واحدا تمهيدا لعدها..

- لا يسعني أن أملأها بمفردي،أيقظي جميل وإلا فإنني سأملأ ما تسنى لي وأترك البقية..

- أملاي ما استطعت وسأتدبر أمر البقية ،ولكن عليك أن تقومي، على الأقل بجلب ما يكفي لملء القصعة عندي الكثير من الغسيل هذا الصباح..
قفز عدد من الصبية يركضون ،لا يعرفون إلى أين..

أطل سامح مستجليا حقيقة ما يجري بالخارج قبل أن يخطو خارج بيته، متأبطا محفظته قاصدا المعهد، عندما أطلت نبيهة من الشباك مرددة بصوتها المتهدج المبحوح،يا صباح الخير ياللي..

انتبهت إلى أن الخالة رحمة قد انسحبت إلى داخل البيت..
كانت البنت تمطط ذراعيها متثائبة، وقع بصرها على القط الأسود الضخم الذي اعتاد سرقة ما تطاله مخالبه من لحم وسمك غفلت عنه ربات البيوت، حاولت اصطياده فتفطن لنيتها المضمرة فراوغها، ما الذي قد يكون اعتراها اليوم حتى تشيح بوجهها متأنفة، وتعرض عن كل من قابلها على طريقها إلى السوق، وهي التي تعودت مبادرتهم بالتحية..واصلت طريقها غير عابئة بنداءات فاتحة المتكررة..

استرقت النظر يمنة، أرسلت عينها إلى باب شبه مفتوح، ونافذة أغلقت درفتيها، فبقيت شقوقها تفضح ما بداخلها..

صادفت في طريقها الفحام، امتقع وجهها، نهرته بتشنج، و دعت السماء أن تأخذه، لكن دون تحديد الطريقة، فقد بدا لها يتلكأ و كأنه يتعمد سد الطريق أمامها، و قد هم أن يوقف عربته في مدخل الحي، تقدمت بخطوات ملسوعة، و قد ضاقت ذرعا بكثرة العيون الفضولية المترصدة، و هي تهم مغادرة الحومة عبر أقصر المسالك، كأنما تخاف أن يفوتها موعد.. اعترضها في آخر الزقاق

سألها الصبي شادي ذو العشرة سنوات: هل تعطي ابنتك منية اليوم دروسا خصوصية..نظرت له دون أن تتوقف.. فاستمر شارحا أن أمه طلبت منه السؤال عن مواعيد الدروس الخاصة وحصص التقوية التي تقدمها منية لأبناء الحي، وعن قيمة المقابل الشهري..
- زرنا في البيت بعد الظهر ستكون عادت من المعمل وستجيبك بنفسها..
أبصرت عن بعد شكري ساعي البريد وهو يدفع دراجته، اتجهت صوبه منادية.. انتظر يا شكري تمهل..
- مرحبا يا خالة..
- لا خالة ولا أي شيء.. ما ذا دهاكم يا شكري حتى تهددوني بقطع الكهرباء..
لسنا نحن من يصنع ذلك الكهرباء لا يخصنا..
- أولست أنت من أحضر التنبيه بقطع النور؟؟
- الأمر ليس من مشمولاتي، أنا بسطاجي أوصل ما يكلفوني بإيصاله بكل أمانة، يبدو أنكم تأخرتم في تسديد معلوم الفاتورة الأخيرة..
- لا يا سيد راجعوا حساباتكم.. ما هذه الفوضى؟
- على أية حال، يمكنك إحضار الفاتورة الأخيرة، والإستظهار بها في فرع الستاغ.. لم تتعبين أنت، وأين منية؟
- ولم تسأل عنها؟-
- من أجل راحتك لا أقصد شيئا سيئا لا سمح الله، أعني أنه بإمكانك التعويل عليها في موضوع الفاتورة قبل أن يقطعوا الضوء، لأن التنبيه الذي جاءك هو الأخير قبل قطع التيار..
كان سامح يسير الهوينى يتصفح جذاذات الأنجليزية، وعندما دنا منهما، همس شكري للحاجة وهو يشير له مقترحا أن توكل له هذه المهمة.. لم ترق لها الفكرة و استطردت..

- يحسن بي أن أوقظ جيهان..
- أليس لديها تدريب اليوم مع فريقها؟
- وما الذي يعنيك في ذلك يعنيك،وهل يكون تدريب كرة اليد في الصباح؟
- مسكينة جيهان..همس بها وهم شكري بالإتصراف..
- ماذا تعني بمسكينة..اسم الله على بنتي محصنة مضمنة..
- لا، أقصدها هي وإنما فريقها،الذي هجرته الألقاب وبات هو الآخر من عهد الباي..
- اغرب عن وجهي يا شكري..
- لا تغضبي مني يا خالة..أنت في مقام الوالدة،ولا تنسي أنا من أحباء الفريق،انظري أرأيت هذا؟
- وماذا يكون؟
بطاقة اشتراكي السنوي،أنا من خيرة أحباء الجمعية..
فجأة علا صوت قريب..الجديد يا رابح،توا جاء مالبحر،تريلية بوري سبارس شورو..يا وكالة..هاو الحوت الحي..
- هل هو حقا ولد بحر والا مثل المرة السابقة..
- صلي على النبي يا حاجة،أخزر للحوتة اللهم صلي عالنبي،شمي الرائحة..
المرة الفائتة غشوني،أخذت كيلو وتبين أنه حوت وادي وإلا سبخة..
- الغشاش لا يبارك له..شرعت في تفحص السمك كأنما تبحث عن عيب ما..واصل السماك دفع عربته وهو يجر أذيال القلق من عدم ترويج بضاعته النادرة،التي بدأت تفقد نضارتها وجاذبيتها تحت سياط الشمس ..
دنا منه الحاج بشير وقبل أن يسأله،ابتدره شكري: اليوم لا بالتأكيد،

الحوالة لم تصل بعد يا حاج،إن شاء الله لا تتأخر أكثر،غدا بالقدرة..
سارع بامتطاء دراجته، و في مقدمتها محفظة منتفخة، ثبتت بعناية
ظهرت منها حزم من الظروف و البطاقات مختلفة الألوان، مواصلا
رحلته اليومية بين أنهج الحي و أزقتها.. مرددا بصوت خافت،
و كأنه تعمد الغناء بصوت رديء، إيقاع أغنية عبد الوهاب، اجري
اجري..

2

دبت حركة عظيمة بين أزقة الحي، صغار يركضون في كل
الإتجاهات، بشر يغادرون ويتحركون جيئة وذهابا، كأنها خلايا نمل
تسابق الزمن، وتتداخل الأصوات حتى يخيل لك لو رقبتهم من عل
لأجزمت أنهم حرفاء أوفياء ونشطون في أحد الأسواق الأسبوعية..
تجاسر عدد من الأطفال المتهورين فاتخذوا من باحة قريبة ملعبا
طارئا،يمارسون فيه لعبتهم المحببة.. كرة القدم.. على مرأى من
الكبار.. وغير بعيد عن سقالة أعدها عدد من عملة البناء لصيانة
بناية آيلة للسقوط..

كان سامح يتابع إيقاع الفوضى المحتدمة في الخارج، موقنا
أن كل الناس غادروا بيوتهم، للمشاركة في كرنفالهم العجيب، الذي
يوافق توقيته كل صباح.. غادر البيت متجها إلى المتجر الذي يعمل
به أبوه لجلب ما أوصته أمه بإحضاره من مستلزمات عاجلة لإعداد
الغداء.. أغلق الباب، توقف مترددا عند العتبة متوقعا ما سيلقى في
حانوت السبوعي.. راجيا أن لا يكون مزدحما بالزبائن.. رفع قدما
محاولا تخطي سيل من الماء المنسكب في اتجاه البالوعة المجاورة
للبيت.. فجأة اندلعت بين اثنين من كبار الحومة مشاجرة طارئة..

- إلى متى ستستمر هذه المهزلة؟
- ماذا تقصد يا عمار، أهكذا تحيي جارك؟
- لا يعنيك، لست متأدبا، ألا تدري ما صنع ابنك، لقد ضبطوه يصوب الحصى نحو نافذتي، ومن غير المستبعد أن يكون هو من هشم زجاجها المرة السابقة والله لن يفلت هذه المرة؟
- ماذا تقصد هل ستقتص من طفل صغير؟
- هو بين أيدي الأمن الأمينة يعلمون ما يصنعون..

فجأة قفزت منيرة من بيتها مذعورة، وقد سمعت ما كان يجري بين الرجلين ..
- أين ابني، ماذا صنعت به؟
- أنا أسألك أين ابنك يا امرأة ماذا تقصدين؟
- لم يعد منذ أن غادر البيت في الصباح..
- يستأهل ما سيحصل له..
قذف سعيد بنفسه على عبد الجبار متوعدا..
- لا تمسك بي لن يجديك نفعا، إذهب إليهم في مركز الشرطة، وأرجو أن تكون طريحة التوبة.. ولما هم بالإنصراف، سمعه يغمغم.. قالو يا خالي الزرع قال له المنجل نسيته في الدار..
دفع سعيد الرجل بقبضته، وهم بركله..
- دعك منه اذهب إلى ابنك وانظر ما صنعوا به، الله يسامحك يا سي عبد الجبار..

تراجعت محرزية للخلف، وقبل أن تقع صدها الجدار، وضعت يدها على رأسها.. سحبها سعيد إلى داخل البيت مزمجرا.. سأذهب إلى هناك وسيكون لي معه شأن.. العيب علينا، نترك أبناءهم يدخلون منزلنا ويرتعون هنا كأنهم في محلهم..

انسل كالسهم لا يلوي على شيء، وما هي إلا نصف ساعة حتى عاد يجر ابنه بغلظة، لاعنا ومتوعدا، ومكررا تحذيره إياه من مغبة اللهو مجددا قرب مسكن الجار البغيض..

تجنب سامح الوقوف لمتابعة بقية المعركة، مخافة سماع كلمات ثقيلة غالبا ما تلفظها عفوا أفواه المختصمين عندما يحمي الوطيس.. تسلل بين جمهور الفضوليين مواصلا طريقه إلى حانوت عم السبوعي..

هنالك فرح والده بمقدمه، ورحب به عدد من الحرفاء الذين أعجبوا بأدبه، وهنأوا الوالد لما بدا عليه من وسامة وخلق مميز، دعاه أبوه للدخول إلى المقصورة، لتناول علبة ياغورت وزجاجة مشروب غازي، قبل أن يعلمه بأن يعد له طلبات أمه ويسلمه سلة ازدحمت بما طلب وبمواد لم يطلبها.. غادر المتجر مترنحا على أمل أن لا يكون قد تأخر عن الموعد المحدد يتسنى لوالدته إعداد فطور الغداء في وقت مناسب قبل عودة أبيه منتصف النهار للقيلولة..

3

في طريقها للحنفية العمومية،توقفت نبيهة عند شباك هناني،نادتها فانبعث صوتها مرتبكا من الداخل..

- صباح الخير ..

- صباح الخير، أعرف أنك ترضعين صغيرتك فيروز كيف حالها اليوم قبليها لي.. سأعود لاحقا لأراها..

خطت المزيد من الخطوات وكأنما تتعمد الإبطاء، فسمعت صوت صبي خلفها ينادي..

- انتظري أريد أن أسألك ..

- من عبد الفتاح، كيف الحال؟

-أريد أن أسألك عن كلمة في الدرس لم أفهمها وأخاف أن تسألني عنها المعلمة اليوم..

- يبدو أنك أخطأت العنوان، و ما هي هذه الكلمة؟

- نقانق..

- نعم، أعد لم أسمع جيدا..

- نقانق..

- من أية صخرة جئت؟ هذه كلمة تدرسونها في المدرسة، لم أسمع بها قط، اسأل المتعلمين يا ولدي أما أنا أختك طلعت سطل.. ما قعدتش مع المنورين كيف سي سامح.. قالك حط البهيم بحذا البهيم يعلمو النهيق والا حتى الشهيق..

ضحكت، و واصلت مسيرها حاملة السطلين المتأرجحين، وقد بدأت تغمغم وكما اتفق، بنغم أغنية، اقرا يا ولدي واتعلم راهو العلم نور، ما تكونش كيفي.. وعندما رأت مرجانة بادرتها بالتحية، فأعلمتها أنها كانت ستحضر لبيتها لتدعوها للتفرج على آخر الفساتين والملابس والأمتعة التي وصلتها حديثا من تركيا لتختار منها أفضل الموديلات والقطع، ناصحة بالإسراع حتى لا تفوتها الجيدة والفاخرة منها ذات الأسعار المناسبة.. وعدتها بالزيارة بعد إتمام الواجب اليومي من الأعمال االشاقة أو "الكرفي" كما تسميه هي.. وضعت السطلين وقامت بترتيب قميصها، قبل أن تتوجه لمرجانة راجية أن لا تفرط سريعا في الفساتين الجميلة، وأن تعمل على إفرادها بأسعار خاصة..

توجهت للحنفية، حيث كانت سيدة تقوم بغسل أطرافها، وقد بدت عليها آثار التعب والحرمان، وامتد البياض يغزو صدغيها ومفرق شعرها، والتجاعيد تمتد في كل اتجاه على طول وجهها العريض الأسمر، المؤتلق من آثار الماء المتصبب، وقد تحاملت لفتح عينيها وكأنما تطرد النعاس أو تغالب الغيبوبة، سرعان ما انطلقت بخطى وئيدة حاملة على ظهرها صرة، انغرزت داخل الزقاق لتقف أمام باب سلمى، نادتها باسمها فأجابتها ودعتها للدخول، دفعت الباب برفق، ولجت البيت، ألفتها قرب باب المطبخ رحبت بها بحرارة، وأدخلتها لغرفة الجلوس.. أغلقت الباب بإحكام، وهمت بإعداد فنجان قهوة..

شرعت السيدة جميلة تقص لمضيفتها آخر أطوار معاناتها خلال عملها كمنظفة بالبيوت، وقبل أن تستمر في قص آخر أطوار ملمتها اليومية استولت عليها غصة فأجهشت بالبكاء..

- هو زوجك مرة أخرى.؟؟.

- نعم، لم أنم ليلة أمس، لقد عنفني البارحة واستولى على كل المال الذي ادخرته، وأخذه معه للمقهى والقمار، ولم يعد إلا مع الفجر..

- الصبر وما حيلتك إلا الصبر، من أجل الأولاد..

- لقد ضاع مستقبلهم بعد أن أجبرهم على الإنقطاع عن الدروس، وأخذ حمزة للعمل في الحمام، وأوصى بدر بأن لا يخرج اليوم ليأخذه هو الآخر إلى محل ذبح وتريييش الدجاج.. رغم ممانعة بدر الذي أخبره أنه زار المحل و أخبره أنه يشمئز من الروائح العفنة وكثرة الأوساخ التي تملأ المكان و عبثا حاول ثنيه عن ذلك القرار..

انهارت السيدة جميلة مرة أخرى، وانضمت لها سلمى تذرف الدمع وتبذل قصارى جهدها لمواساتها.. دخلت غرفة نومها

الضيقة، وعادت سريعا لتضع بين يدي جميلة بعض المال..
- خذيها واحرصي على أن لا يكتشفها مكبوب السعد، حتى تجدي ما يكفي لاقتناء الدواء..
- أشكرك يا ابنتي، بارك الله في صحتك وأولادك ومولى بيتك، أرجو أن تساعديني في غسل الثياب التي اصطحبتها في الصرة، إنها من منزل ثان غير الذي أعمل به كل يوم، وسأعمل على جمع الأجرة عندك تحسبا من غدر عمار، سامحيني سأغفو قليلا لم أعد أحتمل..
- حسنا سأطفيء النار، وأعيد طهي القهوة عندما تفيقين تمددي..

غاصت جميلة في نوم بلا قرار،وانطلق شخيرها،عزفا منفردا يبوح بدرجة تعبها ويفضح أرق ليال متتالية لم يداعب النعاس خلالها جفنيها..

تابع سامح موقف أمه مع ضيفتها.غاص في لجة من التفكير، إلى هذا الحد يمكن أن تقسو الأيام ويبطش الناس ببعضهم البعض.. استحسن تضحية والدته رغم قلة ذات اليد، مستذكرا قوله تعالى.. ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.. ومقولة أبيه.. ما يحس بالزوالي كان الزوالي.. ومزاحه حين يذكر من يأتون لاستلاف المال.. عريان يسلب في ميت، والعاريان لا يتقابلان إلا في.. الحمام..

جمع كراساته وأودعها محفظته الصغيرة، ودع أمه وانطلق في اتجاه المعهد.. حضرته مقاطع من أغنية موعود لعبد الحليم، ارتسمت صورة المرأة المضرجة بالوجع الغارقة في جحيم قدرها اليومي، حلق خياله مع جسده النحيف كطائرة ورقية في الفضاء،

أخذ يتقدم ويبتعد، ويبتعد صوت الجلبة في الحي، وهو يدنو من ضجيج التلاميذ الحافين بالبوابة الرئيسية في مدخل المعهد..

4

مضت من الليل ساعات استغرقها سهر الناس بترقب توجس، شيء ما اهتز قبل قليل وحرك بعض السواكن، سمع كل سكان الزقاق ضجة كان مصدرها بيت علجية التي لم تفلح في الأيام الأخيرة في إصلاح ماكينة الخياطة مصدر رزقها الضئيل، بعد موت زوجها قبل عامين في حادث بميناء البضائع.. كانت تحاول جاهدة إقناع ابنها بالمغادرة والبحث عن شغل لمساعدتها في إعالة أخويه الصغيرين..

عاجلته، عندما عيل صبرها، بصفعة طرحته أرضا، متى ستصبح رجلا، لا بد أن تتعلم صنعة.. صاح باكيا..
- أنا لا أحب العمل في النجارة ،لا احب أن تقطع أصابعي مثل عم حمادي..
- وماذا ستصنع إذن، ستضيع وتضيعنا جميعا معك، فكر يا ابني إنها مصلحتك ومصلحة إخوتك..
- سأذهب وأسأل عن التكوين المهني.. سأحاول تعلم صنعة مناسبة، أرجو أن يقبلوني في تعليم السياقة..
- أنت كالزئبق لا أعرف كيف أتفاهم معك، أرجوك لا تراوغني كالعادة، أريد أن تتوكل على الله وتشمر على ساعدك، حتى لا نبقى عالة على أحد..

سمعت صوت بائع الخضار المتجول، هرعت لجلب حافظة النقود فأفلت منجي إلى الشارع.. خلال مغادرته الزقاق، شاهد جمهرة من الناس يحاولن فض معركة حامية بين سيدتين، كانت إحداهما تجذب شعر الثانية كأنها تحاول اجتثاثه، وهي تصرخ..
- اسكتي يا عاهرة، هل أنت سيدة الحسن والدلال، أم تحسبين نفسك، الجازية الهلالية مخبلة في شعورها من أين لك بالجمال، حتى تفكري في السطو على رجالنا، والله لأفضحنك في كل مكان؟
- ابحثي لك عن دواء، عليك بمستشفى منوبة، مريضة، والمجراب يهمزوه مرافقو..
- والله هذه آخر ما صدر، تعاكس زوجي وتواعده، جهارا في النهار..

نجحت عملية فصل الجسدين المشتبكين، وقفت كلاهما ترعد وتتوعد، وهي تعدل شعرها وتعيد ترتيب ملابسها.. انسحبتا، وأبى الواقفون إلا أن يواصلوا ثرثرة مبررة وحديثا لم يبد أنه سيكون له آخر يرمي عبثا لتحليل أبعاد الواقعة، وتوقع أطوارها المشوقة المنتظرة..

هرب سامح مخافة أن تلحق به أمه،لم يبتعد كثيرا عندما سمع دويا التفت خلفه فإذا بها مزهرية أوقعتها خطأ يد السيدة منانة وهي تطل للإستطلاع ولمراقبة ما يجري..
- يا لطيف، ضاعت المزهرية و خسرت نعناعتي، يا ويلي من سي البشير إن افتقدها، الحمد لله على كل حال أنه لم يكن أحد واقفا هناك، لقد أنجتهم المعركة، صدق من قال مصائب قوم.. ومضت تواصل تعليق الغسيل على الحبل الممدود على طول سطح المنزل.. دخل الزقاق الحاج محمود المؤدب ومؤذن مسجد الحي، وقد وصل لتوه

بعد أن أوصل الأطفال من رواد كتابه إلى بيوتهم، وقف أمام باب الكتاب وقد هاله مشهد المزهرية المتناثرة، رفع رأسه بهدوء، قبل أن يسأل..

- من يلهو في السطح، أم إنها الهرة الملعونة..

- أنا يا حاج، سامحني لم أكن أقصد لقد وقعت مني..

- في المرة القادمة هشمي لنا رؤوسنا،أين أجرة الشهر الماضي،كل الأطفال دفعوا ما عدا ابنك،لقد طلبت من ابنك أكثر من مرة دفع ما تخلد..

- حسنا، لما يعود سي البشير سأخبره وغدا يحضر ولدي النقود، لا تحرمنا من دعواتك يا حاج..

- أنت في الأعلى، وأقرب منا نحن نرجوك أن تمني علينا.. أبعدي سطلك عن السور ماؤه المنجوس يقع على ثيابي..

- سامحني يا سي البشير الماء نظيف لا تخش شيئا، صلي واقرأ كلام ربي وعليك أمان الله،ها قد وصل سي البشير..

- يا حاج مرحبا، ما بالك تارك أطفالك وكتابك ومنشغل بمخاصمة مريم، ماذا صنعت من جرم، هل تستحق الفلقة؟؟

انتبه سامح وأرهف السمع متطلعا لما يمكن أن يجري بعد هذا الإستفزاز..

- أعرف أنك تحلم بذلك اليوم..

- لا يعجبك نوار دفلى في الواد عامل ظلايل، ولا يعجبك زين طفلة..

- ماذا تقصد يا حاج؟؟

- لا أقصدك أنت، وإنما الجارة في طرف الحي،المدعوة زينب، تلك التي يبدو أنها أوقعت بين وردة وزوجها.. أستغفر الله.. أعوذ بالله من غضب الله.. أستأذن..

- انتظر يا حاج لم لا تتناول معنا الغداء اليوم؟
- وكدس اللحم القابعون في المنزل..10 ما شاء الله..
- بالمناسبة يا سي البشير أعطه أجرة الشهر،فقد نسي ابنك أن يذكرك..
- لا ذكرني وأعطيته الأجرة..
- لم أتوصل بها..
- لا يهم،هذه أجرتك،المهم يحفظ كلام ربي..
- والله ابنك يعمل الكيف،له صوت رخيم وحفظ جيد، إن شاءالله يصبح مقرىء في الجامع الأعظم..

تناول الحاج النقود، أخذ يعدها نظر فيها مليا كأنه لا يصدق عينيه..
- عدها جيدا أعرف أنك لا تثق بي..
- معاذ الله، كثرهم الله عليك، وكثر من أمثالك..

5

تقلب سامح في فراشه يحاصر فلول أحداث اليوم المزدحمة في مخيلته، ومتمتما أدعية النوم، رغم تعوده الإلتحاق بفراشه في ساعة مبكرة بعد صلاة العشاء، على رأي والده.. ارقد نعاجي واصبح دجاجي تعيش مالبلاء ناجي.. كانت الليلة شديدة الحرارة، مما اضطر جل متساكني الزقاق، كما تعودوا في ليالي الصيف الطويلة، لافتراش حصر وزرابي أمام بيوتهم، ممنين النفس بسهرة رائقة في ضوء القمر.. فتح بشير صوت المذياع، فانبعث صوت نقي عذب، همست المذيعة معلنة عن بقية البرامج المنتظرة للسهرة..

تنهد سعيد الممدد على بساط "الكليم"، وهو يعيد ترتيب الوسادة و يدير وجهه نحو زوجته حبارة التي كانت ترفع غطاء براد الشاي وتستعد لسكب أول كأس..
- تعرفين بم أحلم يا نور العين؟
- أعرف، بي أنا طبعا،وهل عندك غيري..
-لا شك في ذلك، ولكني أحلم بالحصول على تأشيرة والسفر للعمل بفرنسا،العمل هناك مصدر رزق، وهو السبيل الوحيدة لنا لتحسين ظروفنا واقتناء منزل محترم بعيدا عن هذا الحي..

ارتجفت يدها وهي تحاول التقاط حبات الكاكوية لإيداعها الكأس، حينها التقطت الآذان دويا حادا.. كأنما هو شيء وقع من عل.. نهض فرحات وسار في الظلام الدامس، الذي لم يقو على دحره ضوء القمر المصفر، في اتجاه مصدر الصوت، بينما بسطت زوجته يدها تبغي ستر ما انكشف من ساقيها مخافة وصول شخص غريب.. عندها تذكرت أن توضح له أمرا لطالما شغله..
- يبدو يا سي فرحات، أنك أسأت فهم فكرة التنورة التي أستعد لتفصيلها عند الأخت عروسية الخياطة، صحيح أن القماش شفاف، ولكن هل صدقت أنني سأرتديه كما هو، فأنا سأضيف له تنورة داخلية.. أنا لست بلهاء ولا مستهترة ولم أفقد صوابي حتى أرتكب تلك الحماقة..
نزلت كلماتها عليه بردا وسلاما..

انتبه سامح وكان في بدء غفوته، عندما علا صوت فرحات وهو يمسك برجل كان يهم بعبور الزنقة.. انهال عليه مستفسرا عن هويته وسر تجرئه على استباحة حرمة المكان.. قبل أن يعاجله بسيل من اللكمات.. سقط الرجل طريح الأرض، وقد بدت عليه

علامات السكر، تأخر كثيرا في إشفاء غليل فرحات بإجابات مقنعة، تباطأت ردوده، وهو يتلقى المزيد من الصفعات والركلات.. حتى خارت قواه، فالتحق الفاضل طالبا من فرحات الكف عن تعنيف الرجل خشية أن يحصل له مكروه.. فما كان منه إلا أن أمسك بقميصه، ورفعه آمرا إياه بالإنصراف فورا وعدم معاودة الكرة مرة أخرى..

فر الرجل بجلده، وكأنه جسم غريب مرق داخل الفضاء فلفظه لفظ النواة، ومضى يجر أقدامه جرا، سار لا يلوي على شيء، سرعان ما غاب في الظلام وخفت صوت أنينه المتقطع، حتى انقطع..

- ماذا ألم بك يا امرأة، هل تأثرت مما أصاب الرجل؟
- بل مما سيصيبني إن كنت تفكر فعلا في السفر..
- هل أنت جادة؟ كان يفترض بك أن تشجعيني وتشدي أزري حتى أقوى على مواجهة الغربة..
- لست مجبرا على ذلك، أنا قانعة بما هو متوفر، وعملك في دهن البيوت يجلب لنا الخير وزيادة..

أجابها بفروغ صبر..

- بصراحة لقد جاءتني فرصة ذهبية، أخبرني أحد العاملين بالميناء بإمكانية المشاركة في رحلة مضمونة إلى إيطاليا..
- إيطاليا أو فرنسا.. وإلا حتى أمريكا.. أنت حر..
- أعرف أنه لو تيسرت الرحلة ستعاني في البداية حتى تتعود..

اختلطت داخلها مشاعر مختلفة، شيء من تضارب الأمواج، والمخاوف والظنون..

- الغربة موحشة، لن تجني منها إلا المتاعب، انظر لفريدة المسكينة خمس سنوات من البعد عن زوجها المغترب في فرنسا، تعيش على ترقب رسائله، التي تتلقاها حماتها فتتجسس عليها وتقرأها خلسة وتصرف الحوالات التي يرسلها ولا تعطيها إلا النزر اليسير.. أرأيت كم شحبت وأصبحت من الهزال وكأنها في الستين، ارض بما قسم الله لنا، أنا صابرة، والحومة هنا تعودنا عليها وتعودت علينا.. ترى هل ستلقى مثل هذا الشاي هناك..
- حسنا، لنغير الموضوع..
- أقسم أولا أن تقلع عن التفكير في هذا المشروع اللعين، وأنك لن تسافر..
- حسنا عهد علي أن ألزم وجهك حتى نهاية العمر، أرضيت..

اغرورقت عيناها فرحا، وقد أخمدت الفتنة، شدت على يديه بعنف، رفعت يديها تمسح آثار العبرات المنسابة على وجنتيها، وسارعت بإطفاء الكانون والإنسحاب إلى داخل البيت.. حوقل فرحات في داخله.. شخص ببصره إلى الأعلى.. كأنه يسائل القمر إن كان سيحفظ هذا العهد الذي نفثه عن مضض..

تراجع صدى ثرثرة الساهرين، وقد أخليت أرضية الزقاق من الساهرين شيئا فشيئا، لم يمض وقت طويل بعد منتصف الليل، حتى انطفأت كل الأنوار، قبل الأوان، على غير العادة، كأنما تعجل سكان الزنقة توديع يوم متقل مضطرب طويل..

سحب سامح من تحت الوسادة مصحفه الصغير، قرأ ما تيسر، تمدد مجددا سائلا الله أن يبعد عنه الأرق، و ينيم عينه بعد أن اكره على طول السهر..

6

أفاقت سعدية باكرا، ومضت تنظف البيت، حافية القدمين وتدفع بالماء الوسخ إلى الخارج، وهو يتخذ مجراه نحو البالوعة في الخارج، لم تدق بعد الساعة السابعة، وعندما أحست بقرع باب مجاور تراجعت إلى الداخل، تبغي ارتداء فستانها الطويل.. سمعت صوتا في الطابق العلوي للبناية المجاورة، يتأفف من سلوك الأجوار اللامبالين، وضجيجهم الذي لا ينتهي،مقسما على الرحيل بعيدا عن الزنقة المشؤومة، قبل نهاية الشهر..

نهض فرحات، وقد أيقظته رائحة القهوة، غسل وجهه، ثم أخذ فنجان القهوة، أشعل سيجارة، دخنها على عجل، وغادر كأنما يريد تفادى مواجهة سعدية.. لحقت به، نادته من الباب..

- فيم العجلة يا فرحات، لم تقل لي ماذا تريد أن أعد لك في الغداء؟
- أنا مستعجل، ينبغي أن أكون في المقهى الآن لمقابلة حريف سأذهب معه لمعاينة شقته في قمرت، أدعي الله أن نتفق ستكون صفقة العمر..
- لا تقل إنك سترتب بها مشروع ال..
- قلت لك انسي هذا الموضوع..
- حسن ، الله يبارك في كل أعمالك..

استمر فرحات في سيره مسرعا إلى موعده ،وقد أضمر في نفسه عزما على الرحيل مع الحارقين إلى إيطاليا إن وجد إلى ذلك سبيلا..

مر في طريقه بباعة متجولين يعرضون بضائع شتى، عبثا اجتهدا على أمل استيقافه عله يبتاع شيئا من بضاعتهم.. لم يعرهم أي اهتمام.. سلم عليه الشبلي، المعروف بسي شفافية، هم بأن يقدم له ظرفا به دعوة لحضور اجتماع، فتجاهله وواصل سيره لا يلوي على شيء..

توقف الشبلي ممتعضا من تصرف فرحات، مغمغما..
- ستندم على صنيعك، وسأريك ما يمكن أن يصنع الشبلي..
رآه الحاج جيلاني فاقترب منه محييا..
- كيف الحال يا سي شفافية، لا تغضب منه إنه مستعجل، سمعت أنه بصدد ترتيب مشروع هجرته.. ما الجديد؟
- قسما لأمرغن رأسه في الوحل، لا جديد يذكر.. ولكن قل لي عن أية هجرة تتحدث؟ أعرف أنه من المستحيل حصوله على تأشيرة..
- أية تأشيرة، ألا تفهم، الحرقان وباي باي للفقر..
- الآن فهمت، سأريك ما يمكن أن افعل.. بأمثال ذلك اللعين.. من كان في نعمة ولم يشكر..
- أنا لم أرك ولم تسمع مني شيئا..
- شكرا يا سي الحاج..كلوف..

مساء نفس اليوم، كان فرحات يرتب مع علي وفرج، في إحدى زوايا الميناء مشروع الرحلة غير الشرعية الموعودة..
ليلتها عاد للبيت متأخرا، ساورت زوجته شكوكها القديمة، ولكنها قررت أن لا تعيد فتح سيرة شكوكها..

بعد ستة أيام علم الجميع بضبط محاولة الهجرة غير الشرعية بعد أن قطع الزورق الحامل أربعين حارقا مسافة هامة

من الطريق إلى إيطاليا، قبل أن يتعطب محركه بسبب زوبعة مفاجئة، أدت لهلاك ثلاثة شبان بسبب عجز الزورق عن المواصلة أو الرجوع..

لم يكن فرحات بين الحارقين، لأنه لم يتمكن من جمع بقية المال المطلوب مقابل رحلة الخطر.. وعندما زار عائلة صابر لمواساتها في فقدان ابنها شادى الذي كان بين الهلكى الثلاث.. تهيأ له أنه ولد من جديد، أحس بالندم والحسرة لمجرد التفكير في المخاطرة، ضاربا عرض الحائط بنصح زوجته وتعهده بعدم التفكير في الهجرة..

عاشت الزنقة أياما كئيبة، تصبح وتمسي على صوت عبد الباسط عبد الصمد في ترتيل لا ينتهي لآيات خاشعة على روح الفقيد..

كان خيال سامح يحلق مع الآيات، أحيانا يتأمل في صورها البليغة وإعجازها البالغ، وطورا يتذكر حديث الفنان التركي الذي دربه على العزف و قدم له صورة للمقرىء الشهير و هو يداعب ملامس البيانو، و أحيانا يتصور وضع شادي الذي يبدو محظوظا إذ عثروا عليه ميتا، بينما راح راكبان إلى غير رجعة، وتاهت جثتاهما في أعماق البحر نهشا للأسماك..

7

ترك سامح آلة العود جانبا، وقد أعياه تعديل الأوتار، وتفطن بعد طول تفحص، وفروغ صبر، لوجود عيب في أعلى اللوح المثبتة فيه العصافير التي تشد منها أوتاره.. تنهد وقبل أن يعالج المسجل لإعادة شريط أغنية حاول تفتكرني لعبد الحليم، سمع صوت والده يحمحم، ويسأل عن.. سي خميس الترنان.. كما يحلو له أن يناديه بعد اقتناء آلة العود..

- لم أسمع نقرات عود الترنان، هل هو في الطابق العلوي يذاكر دروسه؟

- نعم يا أبي فقد اقترب موعد الباكالوريا كما تعلم، ادع لنا..

- إني أدعو لك ولبقية إخوتك في كل صلاة، أين العشاء؟

وضع العشاء وشرع في ازدراده بشراهة، بعد يوم طويل من العمل المضني..

تناهى إلى مسمعه صوت ثرثرة وصلته منها بعض المقاطع المثيرة رغم محاولة السيدتين إخفاء ما اجتمعتا عليه..

- ما الأمر لقد شغلتني وحيرتني..

- هل سمعت بجودة؟

- سمعت لقد تزوجت مؤخرا ربي يهنيها..

- هي غير متهنية.. لقد عملوا لها عملا وهي على أبواب الطلاق..

- وه.. بعد شهر فقط من الزواج..

- هل هرب العريس..

- لا تعرض للسحر..

- ومن أدراك؟

- ذهبت أمها إلى مؤدب القرية فكشف لها عن نوعية السحر، وأعطاهم أوصاف صاحبة العمل.. وتبين أنها السيدة صالحة.. وقد صدمت لانكشاف الأمر وسافرت لابنتها في جندوبة..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. الغيرة نار.. يا ما تحت السواهي دواهي..

أحكم سامح إغلاق النافذة.. قبل إطفاء نور الغرفة.. وقد انطلق شخير أبيه فور تمدده على فراشه..

لم ينم ليلتها إلا ضرارا، كتب قصيدة كان يعتزم إرسالها في الغد لإحدى الصحف..

وتسألين عيوني
وتبحثين عن الفضيحة في عيوني..
فلتكوني حرفا في فوضى جنوني..
أنا لم أخنك في الهوى حتى تخوني..

أنا من أضاع كل الدروب..
ولم يلق في الليل سبيلا للهروب..
لا ولم يلاحق غيرك بين القلوب..
أنا من يفتش عنك
بين الشمال..وبين الجنوب.. لا تبحثي عني..
فأنا تائه بين السماء وبين التراب..
وأنا حسنك في عز الشباب..
وأنا صوتك الباحث عن أي جواب
ستبقين عندي سحر اللقاء..

صورة ليل مشتاق للضياء
ونشيدا وتراتيل انتشاء
وذكرى حبيبة ذات اشتهاء..
لا تعودي..
إنني آبى الرجوع إلى أصل الحكاية
قد قررت أن أمضي بعيدا عن أساي
أسفي..
كلما ودعتك عدت للبداية..

أحس أن فيها أكثر من خلل بنيوي،خشي أن يسيء زملاؤه فهم مضمونها، وساورته مخاوف من قسوة النقد الذي قد يسلطه عليه مدرس العربية، طوى الورق وضمه لبقية سجل محاولاته غير المنشورة.. من يدري قد يكون القدر شاء أن تقبع كالدرر داخل الأصداف في انتظار فرصة لقاء مع صياد ماهر أو بحار شاطر.. ربما..

8

فتح سامح عينيه، وقد استيقظ على صوت أبيه وهو يرتشف قهوته بعد أن فرغ من صلاة الصبح وأعقبها بدعائه لأبنائه، أرسل نظرة من النافذة ثم طاف ببصره عبر جدران الغرفة، كما لو أنه يقرأ في فسيفساء الطلاء الذي طلته الرطوبة بألوانها والشقوق والنتوءات قصصا وحكايا وطلاسم، يعيد قراءتها فتبوح له كل مرة بالجديد. رأى سامح أباه تفيض على وجهه ابتسامة هادئة، وقد اشتعل شيبا ولم تنحن قامته.. وقد ارتدى بدلة العمل، وكبس رأسه بشاسيته القرمزية..

انتبه الأب لحركة جفني سامح.. ابتدره ببشاشة..
- لو تنورنا وتنجح ستكون لك مفاجأة سارة، الكل يسألني في الحانوت عن تحضيرك للإمتحان.. عشية الجمعة في المقهى حدثني أستاذك الباهي وشكرك كثيرا، وأثنى على خصالك.. الله يصلح رأيك وينجح أعمالك..

استبشر سامح برضى أبيه، وبإشراق وجه أمه المستدير.. لطالما تمثل له عند ابتسامها بدرا منيرا في ليلة صيفية مقمرة.. لم تكن تبوح بدعائها، مثل أبيه، ولكنه كان ينال في المقابل من حنوها ورعايتها المتواصلة ما يشعره أنها آية حب رباني، ونعمة السماء الكبرى التي تعني له سر أسرار الحياة..

عندما هم بمغادرة البيت، وقعت عيناه على الجارة درجانة وقد جلست على عتبة الدار، مطرقة كأنها ترقب حركة النمل، انتبه إلى أن رأسها كانت تترنح، تحت وطأة النعاس.. لا شك أنها لم تنم طوال الليل بعد جولة جديدة من المعركة التي لا تنتهي مع زوجها..

تذكر وهو يمر بجانبها، ولم تكن قد تفطنت لعبوره، ليلة الأحد التي ذهب في حسبان الجميع أنها لقيت فيها حتفها.. حينها أوسعها منور ضربا وركلا وشتما، بدعوى أن العشاء كان باردا.. صمدت بما أوتيت من جهد،وسرعان ما خارت قواها ولم تملك صده.. ولما هوت ليلتها بجسمها النحيل شخصت بعينيها الذاويتين، أطلق أبناؤها الثلاث عقيرتهم بالصياح، فهب لها عدد من أفراد العائلة الساكنين في الجوار.. كان القوم حافين بها، ويرجون أن لا تفيض روحها من أجل أبنائها..

رأى الأجوار آثار المعركة على جسمها المنهك وقد توازعته بقع حمراء وسوداء.. لم يكن يخطر ببالهم أن يذهب الوحش بعيدا في تعنيفها.. وهي كانت في سرها تردد.. لا مهرب لي من مولى بيتي.. فهو الستر والغطاء وأبو الأولاد.. ولا طاقة لي على احتمال قسوة الحياة وبرد الليالي بعيدا عن بيتي..

في كل مرة كانت تصبر، وتتحمل، يطوف بخيالها برد الشتاء وقسوة الوحدة إن هي انسحبت، لذا كانت كلما غضبت سرعان ما ترضى وتقبل بأي اعتذار لتصالحه..

ذات مرة سألتها نعيمة أن تطلب الطلاق فنهرتها ساخرة، متعللة بالعشرة الطويلة التي لا تهون على الكافر.. وبالأولاد الثلاثة الذين يختزنون آمالها العريضة في غد جميل بلا آهات أو مآس.. يومها ذكرتهم بمشاكلهم ومتاعبهم، فخلف كل باب خصومات وخلافات، وبين كل زوجين حوارات صم وطرق مقطوعة وانقطاع مستمر للتيار..

ذات يوم، أخبرتها إحدى الجارات أنها رأته يودع إحداهن قرب المطعم ويوصلها إلى سيارتها وهو يقبلها بلهفة، ويودعها بشوق وحرقة.. عندما بلغها النبأ لم تضطرب، ولم ينعقد لسانها، وإنما أجابت بابتسامة هادئة وصوت فاتر.. ولكنه لا يوحي بالخيبة والإنكسار، بأنها مجرد إشاعات لا تعيرها أي اهتمام..

قالت إحداهن وقد زاد عنادها على تحريك سواكنها وإخراجها من لامبالاتها.. سألتها: لم لا يجاملك، ولا يدعوك للسهر معه، ليلة واحدة على الأقل.. راهو الحب تبشبيش والكره تهابيش..

كانت إحداهن تهم بمزيد من المكر، روت لها قصصا مختلقة، وما ارتوت.. كانت تريد إغاظتها أكثر.. وقفت بقوامها المربوع، ووجهها البالغ السمرة، و شعرها الجعد القصير، وقد تجمعت عضلاتها في وجنتيها.. تحركت بطريقة مستهترة، وبدت ميوعتها متمركزة في اهتزاز بطنها المنتفخ.. زفرت وكأنها تشهق.. بدت أكثر ثباتا ووثوقا، وردت:

- كل شيء أحباس.. اهنأن و اطمئنن أنا لن أناكده، ولن أخاصمه، وليضرب كما يشاء.. هو ككل الرجال يصول ويجول.. ولكنه في نهاية الأمر يعود لي أنا، وليس له مستقر غير أحضاني أنا..

باغتتهم كالمعتاد بصلابتها ومعنوياتها العالية، اختالت أمامهن، وتمطت تخطو كأنها ملكة جمال أو عارضة أزياء.. واستطردت ..

- هل رأيتن الجمال العروبي الحر، من أين لهن بهذا؟ عندي في قدي ما نوري وفي زندي ما نعري، أما الأخريات، بنات الحرام، فقد رضين أن يكن كالزبالة، التي ترمى في قارعة الطريق، ومصيرها الكنس ومآلها مصب الفضلات.. والصحيح يدوم..

كان الجميع يشفق عليها ويشعر أنها مهيضة الجناح، حتى إن من أخبرتها يوما أن زوجها يعمل حارسا شخصيا لراقصة مشهورة، عادت لتعتذر وأخبرتها أن صديقة مستهترة أوحت لها بتلك الفكرة الشيطانية حتى توغر صدرها وتشجعها على التخلص منه، كي يخلو لها الجو.. وأكدت لها أنها كانت تغار منها، وتتساءل بينها وبين نفسها عن سر كل هذا الصبر، وكيف أن زوجها لطفي انهد، شاخ مع الزمان و تحت وطأة إدمانه وعاداته القبيحة، وهي ما تزال في ريعان الشباب..

كانت تمني النفس بمستقبل يحقق فيه أبناؤها أحلامها ويعوضون عليها ما فات..

دخلت بيتها ليلة تنادي على ابنها الأكبر برهان.. كان يغط في نوم عميق.. ولم يفق على غير العادة رغم غروب الشمس.. هزته هزة عنيفة وهي تلتهج..
- استيقظ من نومك، وافق يا برهان.. أنت الرجل في غياب أبيك..
كان برهان قد طرد قبل شهر من المعهد بسبب سوء السيرة والسلوك وتجرئه على مدرسيه..

فجأة تحرك، فانقطع شخيره، رفع يده وهوى بها على الساعة الرابضة بجواره فوقعت وتهشمت.. كان يغمغم.. سهى.. تعالي يا سهى.. لن أنتظر..

سألته أمه وهي تحاول إيقاظه عمن تكون سهى.. لم يجب واكتفى بالإشارة إلى أنه كان حلما مزعجا..
- هل ستخرج ليلا كما اعتدت.. أشعر أن أباك سيطردك في المرة القادمة.. ما كل مرة تسلم الجرة.. فقد حذرك من مغبة السهر بعد منتصف الليل.. وقد علم بخبر طردك من المعهد ولن تنطلي حيلك عليه..
- أعرف أنك لن تتخلي عني وستفتحين الباب كاملا، أعدك أن أحضر قبل الفجر بساعة كاملة.. أعطني المصروف.. قريبا سأفاجئك بخبر سار.. يبدو أنني سأشارك في فيلم عالمي.. وسأقابل الليلة مساعد مخرج الشريط..

وضعت الأم برفق فنجان قهوة.. وانسحبت إلى المطبخ، بينما لم يتأخر برهان في المغادرة..
تعاظمت شكوك الأم ومخاوفها، ورغم ما كان يبدو عليها من قوة شخصية وبرود أعصاب، لم تتمالك عن زيارة زاوية الولي الصالح سيدي الشريف، تبركا بالمقام وطلبا للمدد والعون.. واعدة بالزيارة والهدايا، إن تحقق المرغوب وهنأ البال..
تاهت تضرعاتها، ولم يلق رجاؤها ونذرها وقبلها المخضلة بالدموع على أحد أسوار الزاوية جوابا..

بعد أيام، وصلها بلا مقدمات نعيه.. أخبروها أنه مات قتيلا بعد أن باغته مجهولون، عندما أوصل صديقته إلى بيتها.. انهارت لهول الصدمة، ظلت تولول لساعات حتى وقعت مغشيا عليها.. ابتلعتها اللوعة، واستغرقها حزن رهيب.. لم يهون عليها رحيل برهان حضور شقيقها من أمريكا بعد خمس سنوات من الغربة..
- غدروا بك يا كبدي، صرعوك وقصفوا شبابك، يا ملاكي الطاهر، لم تؤذ أحدا وهم آذوك.. لم تصبح نجما عالميا، لم تشتر السيارة التي وعدتني بها لن تعش لتحقق أحلامك وأحلامي..

انتهى إلى الأسماع من إحدى محطات الإذاعة نغم عبد الحليم، حاول تفتكرني، وعندما ردد، سافر من غير لا وداع فات في قلبي جراحو، زارت سامح كآبة مرة وسكن قلبه حزن رهيب، وقد أحيت الأغنية جرح الفاجعة الذي لم يندمل، و ذكر الصديق سمير الذي رحل صغيرا قبل عامين، و مات غرقا وقد تجمد أسفل في عمق البحر عندما غاص يريد سحب شبكة الصيد التي علقت ببعض الحجارة..

9

عادت الحياة الطبيعية تدب مع النسائم تدور في الزقاق كطاحونة الريح تسري في شرايين الحي، ذات ليلة، سمع إيقاع المزود مدويا في سطح منزل لطفي، الشاب المتأنق بطل كمال الأجسام ذي العضلات المفتولة، الذي يحلم بأن ينافس نجوم الغناء الشعبي جرمانة وحبوبة والفرزيط.. اندهش سكان الزقاق لتعمده معاودة البروفات مع اعتماد مكبرات صوت قبل مرور أسبوع على وفاة برهان..

لم ينس الناس حيوية الشباب وائتلاق الأمل في عيونه الطافحة بالثقة والعزم وحب الحياة.. ولكنه رحل بعيدا تاركا في بيته صمتا رهيبا، وحزنا باهتا، و وجوما مستبدا قاتما..

عندما كان المؤدب يغادر البيت بعد تلاوة نصيب من القرآن الكريم، التفت فرأى سامح، فتوجه له طالبا منه مساعدته في كتابة مطلب باسم السيد المعتمد لعله يدرج ضمن قائمة المرشحين للحصول على مسكن في إطار برنامج إزالة الأكواخ، في منطقة شعبية آلت بناياتها للسقوط.. كتب سامح المطلب ووعد بحمله بنفسه لمقر المعتمدية، برا للرجل ووفاء لجميله عليه وعلى أجيال من أبناء الحي..

في طريقه للمعهد، أحس بوجود فتاة تسير خلفه، دنت منه، اكتشف أنها زميلته سنياء، سألته مساعدتها ببعض الوثائق والجذاذات للتحضير لامتحان الباكالوريا.. دعاها للتوجه إلى زميلهما محمود

متعللا برداءة خطه التي تحول دون استغلال وثائقه المخطوطة..
جاء ردها مفاجئا..
- ذاك صديقك أنت.. أنصحك بمراجعة معارفك وخلانك.. إنه غير مؤدب.. لقد دعاني لمرافقته لقاعة السينما، ولما رآني غاضبة، أجابني بأنه يتطلع لإثراء ثقافته العامة..

بهت سامح لموقف صديقه، الذي لم يكن يملك حتى التمييز بين البيولوجيا والثقافة.. تذكر يوم شوهد قرب الشاطىء يرتدي زي سباحة يكشف أكثر مما يغطي، ولما سأله أحد زملائه محتجا عن سر تجرده من كل شيء حتى عن رواسب مواقفه الأخلاقية المعلنة، أجاب بأنها "حاجيات بيولوجية"

وعدها بالمساعدة بما يستطيع، وعندما اقترب من المعهد انسل داخل أول جمع من التلاميذ، ليتوارى بعيدا عن عيون مطاردته.. التي كانت تتحين فرصة السير إلى جانبه بمرأى بقية التلاميذ..

هو لم يعد يعيرها اهتمامه منذ رآها تغني وسط حلقة من التلاميذ وتشدو بأعلى صوتها بمواويل وأغاني العندليب..

لم يفكر حتى في إسماعها بعضا من كتاباته الأدبية، وتردد حتى قبل أن يقدم بعضا منها لأحد أساتذته.. ليس هذا هو الأهم، فالأولى أن يصرف جهده نحو مزيد التركيز في الدروس وإحكام الإستعداد ليوم يكرم المرء أو يهان..

عند عودته في المساء ،صادف تجمعا لعدد من الناس حافين بامرأة لم تقو على السير، كانت حاملا جاءها المخاض وفاجأتها أوجاع الطلق، وكانوا يساعدونها على ركوب سيارة أجرة و التنقل إلى المستشفى.. كانت أم برهان واقفة ترقب الحدث.. كانت شاحبة وقد فقدت الكثير من نضارتها وحيويتها، وامتد البياض كالنور وسط حلكة شعرها الأسود.. لما رأته ارتسمت ابتسامة شاحبة، دعته إليها، احتضنته هامسة..
- أنت ابني برهان، أنت تشبهه، ادرس جيدا، وفرحني.. هو كان يشبهك.. ادع له يا سامح أعرف أنك بريء وتصلي الفجر.. أحس بخطواتك نحو المسجد.. ادع الله له إنه أخوك..

طأطأ سامح رأسه، سائلا لصديقه الرحمة، وانسحب بهدوء، دلف نحو البيت وقد تملكته قشعريرة مما كان من أم برهان..

حين جاء يوم نتيجة الباكالوريا، كان سامح يبحث عن شواغل تنسيه عذاب الإنتظار، كانت الساعات تمر ومعها قلبه يدق والظنون تعصف به والمخاوف تتقاذفه..

كان تجمع الناس أمام المعهد كرنفاليا، أعلن عن الفائزين عبر مكبر الصوت، تعاظم اللغط وصياح المهنئين وبكاء الناجحين والخائبين، قيل إنه أعلن عن اسمه، لكنه لم يسمعه بسبب كثرة الصياح والهرج والمرج، لم يكن من المتفوقين ولكن اسمه توسط قائمة الناجحين..

انهمرت عليه القبل، وتهافتت عليه أحضان المهنئين، بينهم كانت أم برهان تقدمت نحوه ضمته إليها وقد اغرورقت عيناها، منعتها غصتها من إطلاق الزغاريد، أدمعت عيناه مجددا.. همس أنا ابنك.. فابتسمت، وابتعدت قليلا.. مسحت عبرات لمعت على خديها ..

- إذن اعتن بأخوي برهان، حتى يصبحا ناجحين مثلك، اعتبرهما أخوين لك، علمهما الصلاة وحفظ كلام الله، وأعنهما في الدراسة.. عدني بذلك..

- أعدك.. هذا النجاح أهديه لبرهان، وسينجح الشقيقان الصغيران ويهديانك أفراحا بلا حساب..

- إذن هيا نذهب للبيت نزف البشرى لأمك ونحتفل بنجاحك، أنت نوارة حومة الدفلى..

بعد شهرين، رحل عم سامح الذي عاش أعزب وكان والد سامح وريثه الوحيد، ومخلفا عددا من العقارات منها مسكن جديد نسبيا قدرت عائلة سامح أنه فسيح ومناسب لوضعها، سرعان ما اتخذ القرار و كانت عائلة سامح تغادر حومة الدفلى، وتتحول للسكن في حي مجاور، لتطوي بذلك سنوات حبلى بالأحداث والصبر والآمال والعراك والذكريات المحفورة في البال، والمرشحة للصمود طويلا في الذاكرة، أمام عوامل الترهل وتأثير الزمن.. انتقل سامح إلى الجامعة، وتحول عن حومته التي عرفت ولادته وشهدت أحداث طفولته وصباه، واستمرت شخوصها تسكن مخيلته ووعيه، تتراءى له، تنعش ذاكرته وتصحبه في كل اتجاه..

بأم عيني .. وقلمي

نبضات حلم مجنح

لم يحن بعد الموعد المحدد للقائه المنتظر مع رئيس التحرير.. ولكنه أحس بالعجز عن مزيد من الترقب.. لم يكن لديه من الصبر ما يكفي لتحمل عبء الإنتظار..

حمل محفظته وقد كان حشر داخلها عددا من وثائقه الشخصية وبعضا من النصوص المخطوطة والمحاولات الأدبية التي لم تر طريقها للنشر..

ترى هل أزفت ساعة الأمل المؤجل، وفرصة معانقة النجاح التي طالما طاردها.. أم ستكون شبيهة بسابقاتها، ويكتشف أنه مجرد سراب.. فقد خاب ظنه مرتين إذ ضنت عليه الصحيفتان الأسبوعيتان، النهار والوردة، التي بثها من صدقه وشوقه وحبه للصحافة وكتب لها ولم تنشر له إلا نزرا يسيرا، لم يرض طموحه

الجارف، قبل أن تتوقفا عن الصدور، وعاود المحاولة مع يومية رحبت بكتاباته ومحاولاته في عدد من الأغراض الصحفية، ولكنها بخلت عليه بنشر حواراته الصحفية الأولى، وقد أجراها على استحياء مع عدد من نجوم الفن في تونس.. وتلقى بذلك صفعة قاسية، وانتابه شك رهيب في إمكانية معانقة النجاح وجدوى تكرار المحاولة..

الأمر يختلف دون شك هذه المرة.. وقد تكون هذه لحظة فارقة كما يقولون،ولن يخسر شيئا إن جرب مرة أخرى، لن تنتهي الدنيا على أية حال..

- اللي يقصد يقصد وجه الكريم - همس أبوه يوسف - الله يبارك كل أعمالك ويفتح أمامك كل الأبواب،أردفت أمه زهرة ..

تردد قليلا، قبل أن تنفتح أبواب القطار.. لم كل هذا الإرتباك، فقد طلب رئيس التحرير أن يراه بعد أن طالع مطلبه الذي أودعه كتاباته في زيارته الأولى للجريدة..

هل يسعفه الحظ، و يصمد قلمه أمام التجربة الجديدة وهل يتمكن من إقناع رئيس تحرير اليومية الرسمية.. استرجع سامح شريط كتاباته الصحفية السابقة، وانتابته رعشة مفاجئة، عندما تذكر حادثة المقال إياه الذي كاد يقوده إلى ما لا تحمد عقباه..

تذكر يوم كتب أول مقال له عن مأساة شاب قام والده الغني بالزواج من خطيبته، بعد أن أغراها بالمال والجاه، تاركا ابنه يتجرع مرارة الحزن والخيبة والألم، نشر المقال وفوجيء يومها بزيارة رجلين حضرا للبيت واصطحباه إلى مكان مجاور

لمقر سكنى الرجل وانهالا عليه تقريعا ولوما وتهديدا.. اكتشف أنهم عمدوا لاقتناء كل نسخ الجريدة المروجة في السوق، متوعدين بانتقام "الرجل المهم ذي اليد الطولى" إن مست سمعته من جراء المقال.. أو كانت له تداعيات قد تخدش مكانته وصورته الناصعة المتألقة..

تساءل في قرارة نفسه، هل كان ذلك الحادث بمثابة الإنذار المبكر، أم إنه إعلان صريح من القدر بمغبة التجرؤ على اقتحام مملكة صاحبة الجلالة..

سار به قطار الأحواز الشمالية،وقد مرت دقائق الرحلة كأنها ساعة أو تزيد..
صادف على الرصيف فتيات يقهقهن، وقد ارتدين البنطلون والتنورة القصيرة بشكل يلفت العيون الجريئة.. على الفور قفزت لذهنه صور بعض الطالبات المتمردات على التقاليد، ممن فضحتهن إحدى المدرسات في الكلية حين تحدثت خلال درس علم الإجتماع الحضري عن ظاهرة الطالبات، عاشقات الإختصار في كل شيء، واللاتي يعمدن للتقصير من طول التنورة عند وجودهن بالعاصمة، وإعادة فتح الطية عند اقتراب العطلة وقرب الرجوع إلى الأهل هنالك في الأرياف والمدن الداخلية..
غض البصر وواصل المسير..

غذ الخطو في اتجاه الجريدة. يا رب هل تكون سفرة طويلة وموصلة هذه المرة، تحط به الرحال في قلبها المتمنع..

هل ينجح في تخطي أسوارها المنيعة ويكتب لقلمه ترويض

أحلامه الهائمة بالسلطة الرابعة.. فالكتابة حلمه، والقلم رفيقه، والصحافة هواه الأول وعشقه القديم..

مرت ساعتان من الإنتظار في مدخل رواق مكتب رئيس التحرير حيث قاعة الإنتظار، وكأنهما دهر.. حان الموعد فدلف إلى الباب، فتحه بتردد، واجهته سيدة تجلس في المقعد المجاور للمكتب المثقل بالجرائد والملفات والأوراق الصفراء، بسطت السيدة يديها على عجل تبغي ستر ركبتيها حياء من الزائر الغريب مخافة أن يرى ساقيها..

رحب رئيس التحرير بسامح ودعاه للجلوس..
- من الواضح أنك تحب الصحافة سنجربك على أية حال، ولكننا نحتاجك الآن في أعمال الترجمة، وبدرجة أكبر في مراجعة طباعة المقالات..
- لا يهم، أنا أشكرك على الثقة وأرجو أن أكون عند حسن الظن..

أمر بالحاج محمد المسؤول عن قسم المراجعة فرافقه إلى مكتبه شارحا ظروف العمل ..
- مستواك الدراسي جامعي، هذا عظيم، ستكون الأفضل بين المصححين، العمل هنا على أية حال شغل إضافي، وإن كنت تنوي المكوث طويلا هنا فستمكنك مراجعة مقالات الصحفيين وتصحيحها دون شك من اكتشاف عشرات الكتابات وأساليب التحرير، ستكون نافذة مميزة وإطارا مثاليا للتعرف على مختلف أشكال التحرير وإمضاءات الصحفيين من مختلف الدرجات والمشارب والأذواق.. انتبه جيدا وحاول استغلال هذا المنجم الحقيقي ..

رافق الحاج محمد الشاب سامح إلى موقع عمل المصححين في المطبعة..

- لنكتشف مكان العمل الذي أرجو أن يكون ظرفيا بالنسبة لك فنحن نأمل أن نراك صحفيا لامعا في يوم من الأيام .. ردد في داخله : لم لا؟ نزلا عبر مدرج مظلم، حاول سامح تلمس الجدار خشية أن تزل قدمه، وصلا إلى الطابق السفلي حيث قاعة المصححين المجاورة لقاعة التركيب ولورشة الطباعة، فضاء أشبه بالدهليز تلفه ظلمة حالكة، وتغلب عليه روائح غريبة تزكم الأنوف، وتنبعث من مكان المطبعة إيقاعات متناغمة لآلات الطباعة ..

طاف سامح ببصره في غير اتجاه قبل أن تأخذه كآبة الفضاء، تهيب الشاب وقد عصفت به الخشية من أن تقبر ظلمات "الداموس" أحلامه الصغيرة..

ابتدره الحاج مجددا..
- الآن وقد عرفت مكان العمل، هيا يا بني أدعوك لاحتساء فنجان، أنت ضيفنا اليوم..

سرح سامح من جديد.. هل يكتب لأحلامي أن تولد من هنا من جوف الداموس سالكة طريقها المظلم نحو النور والآفاق الواسعة.. أم تراها ستختنق حتى الإحتضار؟
لن أستسلم سأمضي في دربي حتى النهاية، ولن أترك لوساوس الفشل والإحباط طريقا إلي..

شدته الحركة الهادرة للعملة، وصيحاتهم الحادة الغنية

بالدعابة والسعادة بالعمل هنا، يا لله، إنهم مبتهجون بالوجود في هذا الكهف وكأنهم يرتعونَ في الجنة..

استغرقه شعور بفقدان الجاذبية لفترة لم يقو على تقديرها، شرع في الطواف بعيدا عن المكان، وقبل أن يمضي في مزيد من أحلام يقظته، صحا سامح على صوت النادل في مشربة المطبعة يسأله عما يرغب في شربه، طلب قهوة عساها تنشط خلاياه وتقويه على مواصلة السير في أولى مراحل مغامرته الجديدة..

أنعشته رائحة القهوة الزكية وهي تفوح مغالبة بقية الروائح الغريبة التي عبق بها المكان..

حضرته وهو يتفحص وجوه العملة الذين تعرف عليهم بصحبة الحاج محمد، صورة أبيه المكافح الذي لم ينقطع عن الحركة والعمل الدائبين طوال نحو الستة عقود، وقد ردد مرارا لأبنائه وبكل فخر واعتداد بالنفس أنه لم يقعد عن العمل، إلا يوما أو يومين لمرض قاهر، ولم يتقاعس يوما عن الإستيقاظ فجرا للإلتحاق بعمله في المتجر الذي يمتد إلى ساعة متأخرة من الليل..
فالعمل سنة الحياة، وهو قدرنا جميعا وفي الحركة بركة..

ولكن من أين لي بطاقته وصبره وإرادته وجهده؟ لاشك إن الله سيكون معه، حتى يقوى على تحقيق مطامحه الواحد تلو الآخر، ليكون يوما ما واحدا من الصحفيين المرموقين الذين تقرأ كتاباتهم ويشار لهم بالبنان..

فجأة قرر الحاج محمد المرور للأهم:

- الوقت هو الوقت، أوصيك يا ولدي بعدم التأخر عن الموعد، فالعمل هنا لا يرحم، مهمتنا صعبة وشائكة، عليك التسلح بالإنتباه وبالصبر على تعاليق الصحفيين، وتجنب استعدائهم.. هنا.. الزلقة بفلقة والغلطة ببعير كما يقولون.. إياك أن تتسرب أخطاء مطبعية، ستفتح علينا باب جهنم، فعندها يصبح الصحفي المعني بالأمر أعظم من حسنين هيكل، حاول أن لا تعطيهم فرصة، فلا يمكن أن تتصور مرارة التوبيخ ومقدار الحرج عندما يصل الأمر إلى المدير أو إلى رئيس التحرير..

استمع له جيدا،انتظره حتى أكمل كلامه ليتوجه له بالشكر على تشجيعه السخي المتواصل..

غادر سامح الكهف/المطبعة، وقد ودعه العمال بابتسامتهم ورجائهم له بالتوفيق في عمله معهم، وقد ضرب موعدا ليوم الغد للشروع في النشاط ضمن فريق المصححين..

طاف خاطره من جديد وهو يغادر المكان، يستقبل مع ضوء النهار خارج المطبعة، راح يفكر في ملامح الغد المشرق الذي ينتظره خارج نفق الأيام الصعبة، وسرعان ما تبددت حيرته وهو يذكر حكمته التي اتخذها شعاره الأوحد.. ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر..

الحياة حلوة بس نفهما.. زفر بها أحد المتسولين الذين تعود على وجودهم ركاب قطار الضاحية الشمالية، استقل عربة المترو، وشرع في سحب طرف بنطلون أحد الركاب يبغي إحراجه لاشتراء راحته بما تيسر من "وسخ الدنيا" فما كان من هذا الأخير إلا أن

أوما برأسه، أن لا.. لا شيء عندي لك اليوم.. فانصرف متأففا، متأسفا على خيبته..

انفلت خيال سامح مجددا،عبر نوافذ القطار المتهادي، أنعم النظر في زرقة البحر، مسائلا موجاته البطيئة: يا بحر قل لي، هل يكتب لزورقه الصغير أن يعبر العباب أم إن لجة الصحافة تخفي أمرا آخر؟..

كم يلزم من صبر وانتظار وجهد حتى يصبح لي اسم وشأن بين أولئك الصحفيين الذين يقرأ لهم الناس ويتابعون نشاطهم وإنتاجهم وينظرون لهم بإجلال واحترام..؟

هل يكتب لي أن أكون يوما ما بين تلك الأسماء اللامعة التي تملأ الدنيا وتشغل الناس ببنات أفكارها وأقلامها وحناجرها الصادحة في الإذاعة، وطالما حدث النفس بمجالستها ومصافحتها والإنضمام لها ضيفا مرحبا به..؟

هل تكون مفاجأة نادرة في تاريخ الحومة ويسطع نجمه على غير سيرة آبائها، و تسعد الأزقة التي غادرها قبل عام بنجم صحفي طالع، من أبنائها؟

ولج باب الجريدة، قادته قدماه داخل الرواق وهو يريد مدرج النزول..

صادفه الحاج محمد ، فابتدره مستغربا..

- لماذا أنت هنا ؟

- إني أبحث عن باب المدرج..

فجأة انبعثت قهقهة حادة من مكتب مجاور..

- إنه يستبله، اسألني أنا أعرفهم فهم يتمسكون عساهم يتمكنون ولكن هيهات، لن يمروا.. أعطوهم القليل فمدوا ايديهم للزنبيل.. كل مشاكلنا من المصححين.. عينهم على التحرير..

- لا عليك يا ولدي، إنه يعاني من الكثير من العقد، ويخاف من بروز المزيد من فشله، لقد جاء إلى هنا بتوصية من أحدهم، جاء حاملا في بطاقة التوصية: التماس مساعدته، إنه لم يفلح في شيء..

- ضرب كفا بكف، ونبس بصوت خافت وكأنه يتقي مسامع الآخرين..

- الله يسامحك يا مصلح.. احذر في المرة القادمة يا سامح أن تدخل من هنا، عليك باستعمال باب المطبعة الذي خرجت منه بالأمس..

- هذا حقا مفسد وليس مصلحا..

- لا تكترث للأمر واصل سيرك من المؤكد أن بعض النصوص خرجت من قاعة التصفيف اشرع في الإصلاح إن لم يحضر بعد العم محمود توكل على الله وسألتحق بك.. ربي يعينك..

نزل سامح الدرجات تلمس جبينه وكأنه يتوقى من أي جسم غريب قد يصدمه في الممر المظلم، أو يتحسس آثار صفعة تلقاها قبل حين..

سمع هاتفا يتردد مرتعشا في صمت المكان، التفت فإذا به العم محمود الذي كان يغادر زاوية في مدخل قاعة الرقن والتركيب، تودع به عادة النصوص المرقونة مصحوبة بالمخطوطات، وهو يحمل باكورة النصوص الأولى المتعلقة بالخدمات، همس: ما هي

إلا بداية.. والضربة التي لا تقصمك تقويك..

- لا تهتم ولا تتراجع أمام الضربات اليائسة والغادرة لأولئك الذين يبغون تنفيرك منذ اليوم الأول.. تصرف بحكمة واتزان، ولا تأس من تصرفاتهم الرعناء إنها عناصر تشبه المسامير الصدئة، لا يرجى منها خير.. هيا بنا للعمل أنا أتوسم فيك خيرا، إنك تشبه ابني الأصغر..

- ولكن يقولون: إذا حبوك ارتاح، لا علينا، ما هذا الورق الأصفر يا عم محمود.؟.

- ألا تعرف البيفتاك، ؟

- أعرف إنه لحم لذيذ.. أشتهيه كثيرا فهو يزورنا غبا.. ولكني أعرف هذا الورق في حانوت العطار الذي يعمل فيه أبي.. وأعرف جيدا لماذا يصلح بالتحديد؟

- لا إنه هذا الورق الذي يدمنه الصحفيون في الجرائد، هو عشيرهم ورفيقهم هو محط آمالهم وأفكارهم وخواطرهم وأشواقهم و.. هو يقتطع من نفس فصيلة الورق الذي تطبع عليه الجريدة.. وغالبا ما يكون من فضلات الكميات المعتمدة في طباعة الجريدة..

- يبدو علي أن اركز في الـ contenu et non le contenant n'importe.

- يبدو أن خطك رديء يا سامح، حاول أن تحسنه قدر المستطاع، إن كنت تعتزم الإستمرار هنا..

إنه موهبة..

- رب عذر أقبح من ذنب، إنما الطبع بالتطبع.. أحذرك فهذا قد يشكل عقبة كأداء أمام طموحاتك في عالم صاحبة الجلالة..

طفق سامح يجلجل النص على ورق البروميد الندي، وقد خرج للتو من آلة الطباعة، بينما يقوم العم محود بتتبع النص

الأصلي على الورق المخطوط، فتحين منه تعاليق نقدية على الشكل والرسم والتركيب وحتى الأفكار والوقائع، دون أن يسمح بتغيير ما بدا مختلا ومشوشا من جراء كتابة معتلة وصياغة غير قويمة

- أنا مرب وأعمل هنا منذ 27 سنة ولكن التجربة علمتني أن أتجنب مشاكلهم، فكم من مرة أقوم اعوجاجهم فيعود ذلك علي بالوبال..

- كيف؟

- الصحفي الذي تصلح له خطأ ما، باستثناء هفوات الطباعة، يشن علينا حربا بدعوى أننا نشوه نصه.. وقد وصل الأمر إلى حد معاقبة من يتسبب في تسرب الأخطاء بما فيها تلك التي يتجاوز فيها المصحح حدوده فيتجرا على تصويب زلل المحرر.. وتلك جريمة لا تغتفر..

بعد ساعة من العمل، حضر الحاج محمد،طلب من سامح اصطحابه إلى مكتب رئيس التحرير..

- خيرا، هل بلغه نبأ خطي الرديء..

- اطمئن، يبدو أنه خبر جيد، أنصحك لا تكثر الحديث هنا.. فأنت تبدو رصينا وهادئا حاول أن تتمالك ولا تسهل على بعضهم مهمة إيذائك وتعطيل مسيرتك.. إنهم لا يعملون ويسوءهم أن يعمل الآخرون، لقد رأيت منهم الكثير..

دخل سامح مكتب رئيس التحرير بعد شيء من التردد..

- أهلا يا بني، هل أعجبك جو العمل هنا.. لقد أوصيت سي محمد بك خيرا..

- بكل تأكيد أنا اشكرك..

-لا تشكرني، الشكر يكون بالجد والمثابرة، جزائي عندما تحقق النجاح الذي تؤمله، لأنه في هذه الحالة سيكون نجاحنا جميعا..

مادمت بيننا مد يدك وأدل بدلوك.. وحاول أن تخيب آمال من سعى لتثبيط همتك منذ يومك الأول.. إنهم مرضى لا تعرهم أي اهتمام.. الجريدة بحاجة لدماء جديدة، ولكي نجربك فستقوم في البداية بترجمة بعض المقالات الفرنسية.. ويمكنك أن تساهم في صفحة المحكمة..

ابتسم سامح فرحا، برقت عيناه، أحس أن باب العرش انفتح أمامه وعلى مصراعيه، لهج في ما بينه وبين نفسه هذه فرصتك لا تفوتها، على قلمك وملكاتك اجتهد وإياك أن تتردد أو تتقاعس..

كان أول مقال قام بترجمته عن حطام باخرة عثر عليها فيليب تاييز في أعماق البحر قبالة سواحل المهدية، بعدها كلفه رئيس التحرير بإجراء تحقيق مع أفراد عائلة تقطن في الضاحية الشمالية امتدت يد الرئيس لتنقذ ابنتها المريضة بدفع تكلفة إجراء عملية زرع كبد..

تحول سامح على عين المكان، ليرصد تفاصيل الشجن ودون كل ما بثه والدا الطفلة، تابع حديثهما بكل تأثر، التقط صورة وغادر مسرعا صوب الجريدة..

حرر المقال وسلمه لرئيس التحرير، والتحق بقاعة المصححين، هنالك طال انتظاره وهو يتفحص حزم النصوص القادمة من قاعة الرقن، حتى تبين نصه وسط المقالات المعدة للنشر، صحح مقاله بنفسه، سجل به أكثر من عشرين غلطة مطبعية، وبلغه أن الفني الذي رقنه أعرب عن تذمره الشديد من رداءة الخط، وقام برقنه على مضض.
في عدد الغد نشر مقاله الأول سعد بوجود توقيعه، قرأ المقال مرة

تلو الأخرى.. ياالله هل يكون هذا فاتحة الحلم الذي سيتحقق، بعد أن استحالت التجارب السابقة سرابا..

فقد كان كتب محاولاته الأولى في صحيفتين أسبوعيتين، نشرتا له بعض النصوص قبل أن تتوقفا عن الصدور ..

كما نشرت له صحيفة يومية بعض الأخبار القصيرة واعتذرت عن نشر حواراته الأولى مع عدد من نجوم الفن التونسيين، أحس حينها أن أمرا ما يحول دون انطلاقته الحقيقة في عالم الصحافة..

الصابر ينال، هذه المرة ما من شك أن الجريدة فتحت له الأذرع وما عليه إلا أن يثبت جدارته ليحفر اسمه بين أصحاب التوقيعات الصحفية الرائجة بين الناس والتي تحظى بالتقدير والإحترام.

بعدها ضاعف الجهد وكرر المحاولات.. كتب ونشر مقالاته في جل أركان الجريدة وأبوابها.. بدا وكأنه يسطع نجما جديدا وواحدا من الأسماء التي سترصع قريبا الصف الأول من الأقلام المميزة واللافتة للقراء وفي أقرب الأيام..

دخل سامح قاعة التحرير، كان وجهه يتصبب عرقا، حيا الزملاء الجالسين بصوت خافت، كان يلهث بشدة فقد جاء مترجلا، ولأنه صعد السلم على قدميه.. والمصعد محجوز لمسؤول هام.. اتخذ مقعده في إحدى زوايا القاعة، أحس بدوار، ألقى برأسه بين كفيه مطرقا..

- ماذا جرى، هل هجرتك؟
- من؟
- صديقتك؟

وقبل أن يرد سامح على بلال، الصحفي المخبر الذي يدعي في الصحافة كما يتردد بين الجميع فلسفة ، رن الهاتف المقابل له، رفع السماعة..
- أهلا فوفة.. لا.. نعم سأكون في الموعد لن أتأخر..
- قل لها، أرجوك لا تتأخري عن الموعد.. إن تأخرت ستصيبني سكتة عاطفية ..

أشاح سامح بوجهه، وقد احمر وجهه اشمئزازا من المزاح الفج..
- لست أدري لم يذكرني سامح بزميل دراسة كان مولعا بالفن الشعبي، كان في كل فرض إنشاء يقحم المزود والغناء الشعبي، حتى ضجر الأستاذ فأعطانا ذات يوم موضوعا حول مغامرة شاب سافر للخارج وذلك بدءا من ركوبه الطائرة فما كان من صاحبنا إلا أن كتب أن الطائرة التي ركبها الشاب أصيبت بعطب فقامت بنزول اضطراري وسط دار عربي ،وصادف أنه كان يجري بها حفل مزود..
رفعت نور الهدى رأسها ونظرت وعلى وجهها علائم الإستهجان..

فجأة توقف بلال عن تصفح جريدة فرانس سوار، ليعلن في وجه نور الهدى الصحفية التي التحقت حديثا بالجريدة..
- انظروا لهذا القد والقوام الساحر، إنها من بنات عيسى، طبيعي إن كل شيء موقع فيها وقد أخذت قرونا من الحضارة حتى قدمت لنا

التحف الفريدة، إنه إعجاز.. انظروا الفن والذوق والإحساس.. أما عندنا فالجمال ذهب ذوق مهراس.. ضحك بأعلى صوته، كأنه يتعمد محاولا كشف سنتيه الذهبيتين، كاد يقع على ظهره فعاجله الرد..

- ومن قال إن ذلك هو المقياس الصحيح للجمال، فلنا في شمال إفريقيا خصوصياتنا.. لم يكن فريد قد أنهى جوابه عندما جمعت الصحفية مرتبكة أدباشها، ارتعدت فرائصها غيظا، انتفضت انتفاض الطائر المذبوح، وغادرت المكان متعثرة في صمت..

- لقد أغضبتها يا سيد سامحك الله..

- ومن تحسب نفسها بروك شيلدز أو بريتني سبيرز.. ربما أكون مخطئا لم أتفرس في زينها الفتان، لم أتعرف عليها.. مسكينة حدة.. يلعن أبو العقد.. متى أحصل على فرصة وتأشيرة لأرحل إلى باريس من غير رجعة..

ما هي إلا لحظات حتى كان مدير الجريدة بالباب..

- صباح الخير سي مصطفى..

- صباح الخير ما هذا الصمت الرهيب، أين البقية؟

- لقد غادروا إلى تحقيقاتهم اليومية، منتصف النهار يكون الفضاء مزدحما، ومسكين من فاته القطار لن يكتب إلا واقفا..

- تعرفون قصدي، لا تفهموا أنني أشجعكم على ملازمة المكتب، والإعتكاف في الجريدة، فالصحفي المواظب على الجلوس هنا ليس عندي بصحفي حقيقي، هذا المكان مخصص لمجرد التحرير أما العمل الصحفي فهو في مكان من أرجاء المجتمع وعلى امتداد خريطة أرض الله.. لا أحب أن أسمع كلمة "لم أجد موضوعا"، المجتمع يغلي بالقضايا والظواهر والمواضيع الصالحة للتحويل إلى مقال، المهم أن يكون لديك نظر وبصيرة وقلم يجيد تحويل ما في الزهور إلى رحيق وعسل.. نهاركم عسل..

واصل المدير سيره نحو مكتبه غير البعيد عن قاعة التحرير..

- نسيت أن الفت نظره إلى ضرورة التفكير في إعادة جلسات مجلس التحرير، القلب معبي، ولازم تفرك الرمانة، صدقوني يفيض صدري ولا ينطلق لساني..
- اكتب، أم أن القلم جف، يبدو أن العمر أثر فيك يا فريد، خاصة بعد الطلاق..
- على العكس، أحب عيشة الحرية.. سامحوني سأذهب إلى المشربة أصالح الحسناء نور الهدى.. أهلا سهيل أين كنت كل الأيام المنقضية..
- الحمد لله، يبدو أنك ستغادر، حسنا تفعل لأنني في أمس الحاجة للهدوء، فلدي عمل مهم جدا، إنه الملحق الإشهاري الخاص الذي أعددته طوال أسبوع، لا بد أن أسلمه اليوم لأنال نسبتي من الصكوك التي قمت بجمعها.. إنها فرصتي الوحيدة لتعديل ميزانيتي، ومغادرة خط الفقر.. وحانت منه التفاتة لسامح فاستطرد، هل أنت الصحفي الجديد؟، لقد قرأت مقالك، عربيتك جيدة سنساعدك في اكتساب أبجديات الصحافة، أنصحك بالكتابة في كل مجال، حتى تتمرس وتطور أسلوبا خاصا بك في الكتابة، اقرأ هذا الأسبوع مقالتي النقدية الأسبوعية حول التلفزة، الأهم هو الأخلاق والإحترام وميثاق شرف الصحفي.. ستطلع عليه عندما تحصل على بطاقة انتسابك للجمعية..
فجأة رفع عقيرة صارخا: صحفي دائما.. مستعد.. الآن عمل وغدا أمر، سكوت حنكتب، سامحونا يرحمنا ويرحمكم الله.

تحول سامح إلى المحكمة ، وإلى مقر الشرطة الفنية، وحصل على بعض ملفات القضايا، قام بتحريرها، تنوعت بعد ذلك مساهماته في مختلف أبواب الجريدة، مد الجميع له الأيدي يطلبون

مشاركته واعدين بالنشر، وفي مكان بارز من الصفحة، كان يسعى لتلبية جل الطلبات، سعيدا بكل هذا الإهتمام، فضلا عما ستدره غزارة إنتاجه من "بيج" أو مقابل مادي يأخذ تقديره بعين الإعتبار تعدد وأهمية المقالات.

عمل على امتداد ساعات اليوم بين الريبورتاج والتحرير والتصحيح، ولم يستنكف من إجراء بعض الريبورتاجات حتى ساعات متأخرة من الليل.

ذات صباح فوجىء بمسؤول صفحة الإقتصاد يخاطبه ممتدحا..

- والله بعيدا عن كل إطراء مجاني ولزوم ما لا يلزم من نفاق إجتماعي، أنت الصحفي الناشىء، لقد أعجبني أسلوبك، فيه بعض الجهد ومسحة من الخيال والتصوير الفني والجمالية، حاول أن تواصل ولا تستسهل، لا بد أن تكون لك بصمة وطريقة تخصك، ولا تهتم لأنك لا تحمل شهادة تثبت تخرجك من معهد الصحافة، فليست الضمان بجودة القلم ونجاح الصحفي.. وجل الصحفيين اللامعين في الساحة الإعلامية هنا وفي العالم العربي عصاميون اكتسبوا الحرفة الصحفية بالممارسة..

- ولكني أدرس علم الإجتماع..

- وبإمكانك في الوقت المناسب مواصلة الدراسة بمعهد الصحافة بعد اجتياز مناظرة الصحفي المحترف..

سعد سامح بهذا التشجيع، و واصل مسيرة الكتابة، تغطية للأحداث ومواكبة للإجتماعات والندوات، محاورا للشباب وللشخصيات، كان مع مر الأيام يتأكد من أن الجريدة تفتح له حقا

أبوابها وتراهن أنه سيكون قريبا واحدا من أركانها الركينة..

كان يجدد في قرارة نفسه العهد على بذل قصارى الجهد ليحقق الأفضل وليكون في كتابته من الصنف غير المعتاد، وإن كان يحس مع تضاعف حجم العمل وتزايد العبء الملقى عليه أنه لن يملك متابعة الدراسة ، لا بد من التضحية على أية حال، لا يمكن للمرء أن ينال كل شيء..

كان يفكر في تحسين قدرته وتطوير كفاءته حتى يكون في مستوى يخول له التميز والتألق، و ليقول بما أوتي من موهبة، وصدق وقلم: هاأنذا..

لم يتردد تحت أنظار رئيس التحرير في تلبية المزيد من الطلبات والإستجابة لكل اقتراح حتى امتلأت أجندة يومه بالأنشطة والتغطيات والزيارات والكتابة والتصحيح..

لم يكن الدرب ممهدا تماما أمامه، وورودا بلا أشواك، وتعددت المفاجآت غير السارة..

هذا صحفي يوصل بنبرة حادة احتجاجا رسميا لورود أخطاء مطبعية فادحة من جراء تقصير أحد المصححين غير المهتم بعمله..

وذاك رئيس تحرير آخر في الجريدة يدعوه على عجل لمكتبه ويقوم بتقريعه، ويمزق في وجهه مقالا كتبه سامح ولم يحكم انتقاء بعض المفردات بحيث أدرج عبارات غير مناسبة لسياق

الجريدة..

وسرعان ما تنبه سامح لوجود بعض الخلافات من القبيل الذي لا يفسد للود قضية بين المسؤولين ورؤساء التحرير، وهو ما استوجب منه التحلي بالكثير من الحذر، ومراعاة لمختلف مواقع النفوذ وموازين القوى..

تعددت المقالات التي تحمل إمضاءه في العدد الواحد من الجريدة مما دعا رئيس التحرير إلى تقليص الإشارة لاسمه الكامل والإكتفاء في الكثير من الأحيان بالأحرف الأولى من الإسم واللقب، واكتشف سامح أن بعضهم اتصل عمدا بإدارة الجريدة للتنبيه لهذه الظاهرة غير الطبيعية التي من شأنها، في رأيهم، أن تضر بسمعة الجريدة..

اقترح عليه أحدهم انتقاء اسم مستعار، من قبيل سامح يوسف، لتجنب الحرج عند تعدد المقالات التي تنشر في عدد واحد..

ردد في نفسه وقد ساءه أن ينجح بعضهم في تقليص حضوره "الموقع" على أعمدة الجريدة ..

ما ضرهم لو عملوا بالمثل وكتبوا مقدار ما أكتب، لا علي، المهم أن تنشر المقالات ولا أغمط حقي آخر الشهر..

أحس سامح وهو بين نوم ويقظة بيد تمتد نحوه، انتفض فإذا بها أمه.. انتبه إلى بزوغ الشمس، واستنتج من الأوراق المنتشرة

حوله أنه نام وهو يكتب.. قام مسرعا يصلي الفجر والصبح.. غادر البيت متجها صوب بائع الجرائد.. ابتاع جريدته، وعند مطالعة محتواها، قرر المرور ببيت خطيبته وامتطاء القطار من المحطة القريبة..

طرق الباب بهدوء، عرفت "فوفة" طرقاته، قالت له:ادخل، فاعتذر لتأخر الوقت،ا ستأذنت أمها في مرافقته للمحطة ومن ثم إلى المعهد حيث تدرس..

كان وجهها مشرقا، وعيناها غائمتان كأنهما نجمتان يغالب ضوءهما الخافت غيوما وقحة عنيدة..

قدم لها الجريدة مشيرا للمقالات التي صدرت له في عدد ذلك اليوم.. شاهد وهو يقطع الطريق عربات المترو تتجه في اتجاه العاصمة فعبر عن أسفه..
- بالعكس هذا من حسن الحظ.. حتى نقرأ ما كتبت لنا اليوم.. أولسنا قراءك وجمهورك..
اندهشا وهما يدخلان المحطة لوجود امرأة تردد بصوت عال أغنية: سيبوني يا ناس في حالي.. أخفيا ضحكتهما..

وعدها بتحديد موعد الفاتحة قريبا بعد ترتيب بعض الأمور ومشاورة العائلة، طمأنته بتأكيد تفهم والدتها التي تؤمن بـ.. تزوجوا فقراء يغنيكم الله.. وبشرته باستعدادها لمخاطبة أحد الأقارب ممن يعرفون مدير الجريدة ويجمعهم مجلس النواب بأن يحادثه في موضوع وضعه في الجريدة ولم لا الترسيم..
أكد لها إنه حلم كبير خاصة أن بعضهم بالغ في مضايقته..

أجابت بابتسامة واثقة ومشرقة، إنه بإمكانه انتظار خبر سعيد قريبا،طلبت منه الزيارة مساء إن لم يعد متأخرا بعد استكمال العمل بالتصحيح..

- لا إلاه إلا الله

- محمد رسول الله..

اطمأنت وقد ودعته سعيدة، وهو متفائل فقد استنشق أملا جديدا وتأكد أنها تبادله شيئا مهما..

استقل عربة القطار، عثر وعلى غير العادة بيسر على مقعد شاغر تهالك عليه،تذكر أن الوقت متأخر عن فترة ذروة الصباح حيث يزحف الموظفون إلى مقرات عملهم..
حضرته وهو يذكر لحظات الزحام الخانق عند الذروة صورة في أول رواية أيام من زمرا، أو كما يحلو لصديقه الفلسطيني طلال أن يسميها، أيام مزمرة، حيث جاء فيها.. تناول التذكرة وأسقطها في جيب قميصه دون أن يتفطن إلى أن قاطع التذاكر الأزعر المنمش الوجه، كان سكران إلى حد التعثر في أرجل المسافرين الجالسين في معابر العربة..
سرح سامح، حلق خياله بعيدا..

صفر القطار فقطع جولته، مؤذنا بإدراكه المحطة النهائية، حاول سلك معبر قصير بين النازلين لتدارك ما فاته اليوم من وقت الصباح الثمين.. بورك لأمتي في بكورها..

سار في طريقه للجريدة، أحس بما يشبه قوة خفية تجذبه إليها..

دار بخلده أن السحر يكمن في الصحافة.. وأن أولها هزل وآخرها جد..
صادف في طريقه الصحفي الشاعر عبد السلام..
- في ما تفكر يا سامح، لقد تبعتك منذ نزولك من المترو ولم تتنبه لي..
- أنا منشغل بشأن الصحافة..
- كلانا، حولها يدندن.. أتعرف ما كتبت في حقها..
يقول الصحافي..
إذن لماذا أصول وأجول..
وإذن لماذا أنا صحافي..
الصحافي عمره قصير
زوجته مسكينة
في بيتها
مع أولادها مسجونة..
- حمدا لله أن خطيبتي لم تسمعك..
- أما الشيخ إمام فيقول:
مر الكلام
زي الحسام
يقطع مكان ما يمر،
أما المديح
سهل ومريح
يخدع لكن بيضر..
لا تبتئس يا صديقي، وإليك هذه البشرى، علمت من مصادر مطلعة أن عم رشيد سيصرف اليوم أجور ومكافآت المتعاونين، والبيجيست أمثالك..

- هذا خبر سعيد حقا..
- لماذا هل أنت في ضائقة مالية..
- لا ولكني بحاجة ماسة للمال، أنا استعد للخطوبة..
- نعم الإختيار، فالزواج المبكر أفضل حل للشباب، و من حسن الحظ أنك ورغم بعض الأصوات الناعقة في الجريدة، تحظى بالإحترام، ولديك موهبة مؤكدة، وعليك بشيء من الصبر والثبات، أنا أترقبك صحفيا من أعلى طراز.. لا يهمك من أذى المتحاملين والحاسدين.. دع الحاسد وغيظه فإن حسده قاتله فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله.. هل تريد أن أزيد توضيحا؟ صدقني كلهم عيوب ونقائص وهنات، أحدهم ارتكب خطأ قاتلا منذ عشرين عاما، تصور كلف بتغطية حفل فني، وعوض التحول للمسرح لمتابعة الحفل، جلس في زاوية بإحدى حانات المدينة وظل يحتسي ويتخيل ويكتب، ونشر المقال وكانت الفضيحة الكبرى، وهو واحد من أولئك الجالسين على الربوة اليوم، يراقبون وينتقدون وحتى أنهم لا يعملون، ويبدو أن بعضهم نسي من كثرة وظائفه الموازية والإعتراضية مهنته وسبب وجوده في الجريدة..
لا تنس رضاء الناس غاية لا تدرك.. ولكنني أنصحك بالعمل والإجتهاد وتكرار المحاولات ومحاولة الإستفادة من نجاح الآخرين وأخطائهم كذلك..

لم يتوقف الصحفيون الناصحون في الجريدة عن "إنارة" الصحفي المبتدىء..
- الصحافة ما توكلش خبز، هي جحودة ومجدبة، أرض قاحلة لا تنبت إلا شوكا..
- النجاح في الصحافة عملة نادرة جدا، هناك 4 تذاكر فقط لنجومية الصحافة، استأثر بها كل من هيكل وأمين والعبيدي وشيخ روحه..

لا بد من الذكاء والحرفية والموهبة، والحظ ومعرفة بمختلف مداخل النجاح ، فليس هناك قواعد محددة ومضبوطة سلفا صالحة لأي كان ووصفة دقيقة للنجاح والتميز.. فقليلون هم الصحفيون الذين حققوا نجاحا حقيقا في هذا الميدان الصعب والجحود..

احذر أن ترتكب هفوة لا تغتفر.. فالجريدة رسمية.. والزلقة هنا بفلقة..

حاول مغالبة ما تركته تلك الكلمات الخبيثة والملاحظات المسمومة من ألسن الغيورين على مستقبل الجريدة كما حاولوا إيهام سامح، مستحضرا تشجيع رئيس التحرير، ومن فرحته المتجددة مع مطالعة مقالاته التي باتت تصدر كل يوم على أعمدة الجريدة حاملة توقيعه..

صادف في الجريدة الشاعر الصحفي يوسف الذي كان مشرفا على صفحة أدبية بإحدى الأسبوعيات، وقد استمر و خلال سنوات يراسله ويوجه له محاولاته الأدبية، وها هو يلتقي به ويعمل معه زميلا في الجريدة، كما أسعفه الحظ بلقاء جمال وهو صحفي آخر انضم للجريدة وكان من الأسماء التي يقرأ لها في إحدى الأسبوعيات، وقد كان معجبا بأسلوبه السلس وتعبيراته الرشيقة استساغة من قبيل السهل الممتنع، سرعان ما اكتسب صداقته، و وطدت علاقتهما مغامرة الملحق الأسبوعي الذي أوكل له الإشراف عليه، فضلا عن حبهما الراسخ لأغاني العندليب..

ذات يوم حمله الشوق لاكتشاف الإذاعة ومرافقة الصحفي حبيب الصادق لمتابعة سهرة الإذاعي صالح جغام بعنوان حقيبة المفاجآت، تابعها في أستوديو 2 وهو يردد في قرارة نفسه: هل تصدق واحدة من المفاجآت، وتقذف بي مذيعا أو منشطا على الهواء..؟

كانت بداية صداقة مع صالح، جمعته به متابعا لنشاطه مساهما بالكتابة في مجلة الإذاعة التي كان يديرها.. تضاعف اعتزازه بهذا الصديق الكبير الذي لم يبخل عليه بالتشجيع، ودعاه مرارا لإعداد مساهماته الصحفية وفق ما يقترحه عليه..

ظلت صور اللقاء الأول ليلة حقيبة المفاجآت، محفورة في ذاكرته، ولقائه الأخير به بعد سنوات في مكتبه وهو يرجوه تمكينه من تسجيل صوتي لأغنية طلبها مدير الجريدة وهي: أصبح عندي الآن بندقية، بصوت أم كلثوم، وغادر الإذاعة خصيصا لجلبها من بيته المجاور لمقر الإذاعة..

بين اللقاءين عايش سامح رجلا ناقدا ومثقفا غير عادي، كان يرى فيه الصدق والأمانة والحساسية والتحفز لخدمة الأدب والذوق والثقافة..

سمعه ذات "يوم سعيد" يمرر أغنية: انتباه، لفريد الأطرش، ردد معها، انتباه انتباه، الوقت وقت الإنتباه والحياة، واللي تهون عندو الحياة، لا حياة للجبان واللي يرضى بالهوان..

سمعه يومها ينقد ظاهرة الأفلام التافهة التي تضخم عناصر شكلية، وتسهم في تعميم قلة الذوق والإسفاف بدءا من عناوينها، مستعرضا بعضها: الززوات.. بزناس وغيرها..

استنشق طويلا نفاثات سجائره الممزوجة بنفاثات غيظه على السائد المسف المبتذل و الرخيص..

- المثقف شيء كبير وهام رغم وضعه الذي يبدو له هامشيا بالمقارنة مع نجوم الكرة مثلا.. الجاد لا يلقى حظه.. ما يجدي أن تكون ملتزما والتافهون ينالون كل التشجيع..

حدثه طويلا عن سبقه ونضاله الثقافي والإعلامي واعتداده بنفسه، قال له إنه تعب كثيرا حتى ظفر بحوار إذاعي مع عادل إمام عندما زار البلاد في إحدى دورات أيام قرطاج السينمائية، و صور معه حينها حلقة من برنامج تلفزي بعنوان: رحلة في عقل.. و قرر أن يترك التسجيل في الرف سنتين أو تزيد، وهاهو يقرر الإفراج عنه والشروع في تركيب الحلقة..
- تصور أنني سأقدم خلال الحصة مقطعا من أغنية أحمد عدوية زحمة يا دنيا زحمة،طبعا لضرورة فرضها سياق الحوار..

تحدث صالح لسامح بانسياب وعفوية، قدم له نماذج من نجاحاته ومآثره في الإذاعة، حدثه عمن قدمهم وساعدهم على الظهور،وكشف له عن بعض جوانب تضحيته وصبره ومعاناته..

ظلت صورة صالح تكبر في عينيه، وتتكامل صورة الصحفي المثالي الذي يؤمن برسالته ويفتدي مهنته ويخدم الناس بفكره وذوقه وصوته وروحه..

وشاءت الأقدار أن يتيح صالح لسامح فرصة عفوية لم ترتب من قبل للتحدث لأول مرة في الإذاعة خلال تغطيته لحصة فجر حتى مطلع الفجر، عندما تقرر لأول مرة أن يتواصل بث الإذاعة دون انقطاع..
خلال لحظات تبدد المستحيل، وتحقق الأمل المؤجل..

فقد حاول مرارا ولوج عالم الإذاعة السحري، وعبثا راسل برنامج مع الأدباء الناشئين وجنة الأطفال..

ألفى نفسه يكرر المحاولة، ويقترح المشاركة بإنتاج برنامج إذاعي سرعان ما حظي بالقبول، وأصبح سامح صوتا إذاعيا محلقا.. على جناح الأمل..

ارفع رأسك يا قلم

1

- أين هو هذا الصحفي المغمور من صالح الحاجة ومحمد بن رجب وأنيس منصور و..
- الكثرة ليست دائما عنوانا للبركة والجودة، وكثرة الإنتاج لا تعادل مقياسا لنجاح الصحفي ..

كلمات وعبارات وأحاديث تتكرر، ويحرص بعض الصحفيين على إيداعها مسامع سامح..

عبثا حاولوا إيغار صدر رئيس التحرير، للحد من مجال نشاطه وإشعاعه، مبرره في ذلك أنه يعمل بنسق متفرد..

- لا فائدة من التسلق والتسرع ، أنا إن اعترضتني المقالات والمواضيع السهلة أمامي أكداسا في الطريق أشحت عنها ودست عليها بقدمي ماذا ستربح من كثرة الإجتهاد..excès de zèle .c'est bête

- إنه حقا إسهال صحفي.. لدي طبيب من معارفي يمكن أن يعالجك إن سمحت يا سي سامح..

- يا إلاهي كل هذه مقالات سامح، لم لا يغيرون اسم الجريدة فتحمل اسمه ونخلص جميعا..

- احمدوا الله إنه يريحكم، إنه يؤدي عنكم الكثير من المهام و الأعمال..

أخذ بلال الفنجان، لمست شفتاه حافة الفنجان، ارتشف وعاد عازما على إخماد الأمل في روح سامح..

- أنا أعتقد أن العلم شرط أساسي، وفاقد الشيء لا يعطيه، هؤلاء الهواة يهددون مستوى الصحيفة والصحافة وسمعتها..

لم يجرؤ سامح على الإلتفات، ولم ينبس ببنت شفة، بدت عليه علامات الحسرة، ولكنه كظم انفعاله، هم بالإنصراف.. مرددا ماذا لو تحقق حلمي ودخلت الإذاعة؟ عندها استطرد بلال..

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. ما أنشطكم في تثبيط الهمم وتثبيط همم الشاب.. تعلمون ما سيحدث الآن..

- سيستقيل .. وستتدخل الأمم المتحدة بمجهود شخصي من بيريز دي كويلار..

نزل سامح متثاقلا لقاعة التصحيح، واصل هناك تحرير بقية مقاله، وطلب من الحاجب الذي أنزل المقالات المخطوطة

لقاعة الرقن، بتسليمه لرئيس التحرير..

انتصب خلفه ثامر التقني راقن بالمطبعة..
- لا تلق بالا للأمر، يا أخي نصف المائة خمسون، أليس كذلك، أبشرك أنا اتفقت مع الجماعة هنا على أن أختص برقن مقالاتك، لقد سمعت بما تلقاه من بعض أولئك الأوباش.. لا تفرحهم فإنهم لن يستريحوا ما دمت تجتهد وتلقى كل هذا التشجيع.. ربت بشير الراقن المكلف بالفترة الأولى من العمل الصباحي، وانضم له عم رشيد قيدوم فنيي التركيب الورقي بالجريدة، ودعاهما لاحتساء القهوة على حسابه..

عاد سامح مساء اليوم مثقل الخطوات، كأنما يجر عبئا ثقيلا، زار بيت والده، صادف وصوله استعداد والدته لتناول الغداء، أرسلت أخته الصغرى في طلب الأب في المقهى فقد أوصى أن يرسل في طلبه عند حضور سامح..

دخل الوالد بابتسامته المعتادة الواثقة، ووضع أمام سامح علبة لبن طازج..
- أعلم أنك تحبه كثيرا.. جلبته لك خصيصا..
- شكرا يا أبي يحفظك الله.. اللهم بارك لنا في ما رزقتنا وزدنا منه..
- لقد هربت من المقهى السابق، مقهى القابسي رحمه الله، لأن جل جلاسي توفوا الواحد تلو الآخر وفهمت الدور علي، و أن ملك الموت وصل إلي فالتجأت لمقهى اللوح..
- سلامتك، أطال الله في عمرك تبدو أصغر مني ما شاء الله..

- تمزح، أنا عشت عمرين، وحياتين في عهد الإستعمار وفي فترة الإستقلال وفي هذا العهد الجديد.. لقد ازدهرت الأمور ونحن نعيش في جنة، لقد كان الناس يعيشون في فقر مدقع، اذكر أن الكثيرين كانوا يتجولون في المقاهي لجمع أعقاب السجائر، وكان عدد المتسولين لا يحصى ولا يعد، حتى أن بعض التجار كانوا يدعون صناعهم لمساعدتهم في الرد على المتسولين بقول: الله ينوب.. كل يا سامح حتى تقوى على العمل.. قل لي ما هي أخبارك ؟

- الحمد لله..

- لا تهتم، ما بعد العسر إلا اليسر.. لا تخمام مع الله.. لقد قمت اليوم بجولة في حلق الوادي، قليلون ما زالوا على قيد الحياة من جيلي.. لقد تقدمت بي السن، ومادوا الكبر إلا القبر، ولا ينفع حذر مع القدر..

- لا تقل هذا يا أبي..

- أنا أعيش في الوقت الضائع، الحمد لله لقد عمرت طويلا ففي عائلتنا لا عهد لنا بمن يعمر إلى هذا الحد، لن آخذ وقت غيري، أذكر واحدا من أصدقائي صادفته قبل أشهر في أحد أنهج العاصمة، وهو يجول ويتوقف محدقا في المباني والمغازات، فقلت له ماذا دهاك، فأجابني ببساطة: أنا بصدد توديع الدنيا، و لم تمض أيام حتى رحل.. كما رحل جل أفراد عائلتي.. لقد كان ابنائي من زوجتي الأولى يموتون الواحد تلو الآخر بمرض غامض، وكنت أدفنهم بيدي في مقبرة العائلة بوادي الزبيب، وسمعت أحدهم يقول، لقد ازدحمت مقبرتنا بموتى عائلة يوسف، ولحقت بهم أمهم ولم يبق إلا شريف أصغر إخوته.. الحمد لله..

ها قد وصل فنجان شاي "مهم"، الآن يمكن أن نؤكد وبلا أي حرج أن أمك فرحت بنا..

التاي نزهة جميع خصايل الدنيا حايزها
الأول السهرية
والثانية ينحي التعب والعيا والثالثة للضيف فنطازية
فناجين فوق الطاولة راكزها
والرابعة يخليه في سورية يتحزم للأملاك ويجهزها..

نجح الوالد بدعابته وظرفه في انتزاع بسمة عريضة ارتسمت على وجه سامح، فاستطرد أبوه..

- لقد كان الشاي أيام زمان موضة وبدعة وترفا، وكان مطلوبا وعنوانا للرفاه، نفرض أنك تنزل ضيفا على أحدهم فيذبح لك ويكرم وفادتك ويعد لك وليمة وإن بخل عليك بالشاي فإنك ستجزم أنه لم يفرح بك، وعلى العكس إن قدم لك أكل بسيط مع الشاي ستعلن يقينا أنه أكرمك أيما كرم.. لقد سمعت عن رجل كانت زوجته توصيه وهو يهم بالتوجه للسوق بعدم نسيان الشاي، وذات مرة أوصته فأعلمها بعدم امتلاكه ما يكفي من النقود، فأعطته بعض أدباش البيت طالبة منه أن يبيعها ليقتني بثمنها شايا، فعل، ولكنه عندما عاد قابله منظر براد الشاي، واهتزاز غطائه وأزيزه الخافت، والبخار يتصاعد من فوهته، كأنما يتحداه ويدعوه لمنازلة.. سكت هنيهة، ثم دنا منه حانقا، رفعه مرددا غير آبه بحرارته العالية..
قعدتك قعدة جمل ومنظرك منظر حنش
وفيت الفلوس مالجبيرة وباش تدور لي عالدبش.. وألقى به على الجدار بعنف فهشمه..

الكرم كان عنوانه الشاي وكان المهم هو البشاشة والبسمة التلقائية الصادقة كما يقولون: اطلق عبستك وشد خبزتك، كل يا

سامح، اسمع يحكى أن رجلا تحرك في اتجاه بنغازي فأدركه الليل وهو في الخلاء فاتجه نحو مصدر ضوء فإذا هو مسكن فخم، استقبله صاحب البيت وأمر الخادم بإيصاله لبيت الضيافة وأمر بأن يذبح له وأن يعد له العشاء.. بعد قليل وجد عابر السبيل نفسه وحيدا، تسلل من غرفته وأسرع بالإنصراف.. سار قليلا حتى وصل إلى بيت من القصب، استقبله صاحبه بحفاوة دعاه للجلوس وبدأ بسؤاله عن أحواله، وأمر زوجته بإحضار ما تيسر من أكل، ولم يتركه حتى أحس أن النوم بدأ يأخذ منه مأخذه..
وكان محل شاهد هذه الحادثة يقول.. قشر من عند بشر نكتة عسل في زبيبة خير ماللي يذبح ويمشي يتكى في الزريبة..

استطرد الوالد يحكي ذكريات الأمس البعيد وكأنما حصلت بالأمس.. عندما شعر باهتمام سامح وإصغائه الشديد، أردف قوله..
- أما أبي فلم يكن يروي لي الحكايات بكل التفاصيل،رغم أنني أمضيت 3 سنوات مغتربا في فرنسا، كان يصلني منه الجواب بعد أشهر طويلة، فكنت أرد عليه طالبا أن يطيل الرسالة قليلا فأنا أنتظرها على أحر من الجمر، ولكنه يكتفي كلمات السلام.. بعد ذلك وصلتني منه رسالة كتب فيها..
صارت عملة عند رحومة خبرنا الهواش
ذبح كلبه خلى القرجومة كملها بعداش..
لقد كانوا بالفعل يتحدثون بشيء من الشعر العامي والجربي، وكان بعضهم يحلو له أن يردد.. محال من منزلنا يطلع فارس.. كي تخلطو بالسكر يطلع قارص..

واصل الوالد حديثه الممتع، ومضى يستعيد أجواء حلق الوادي زمان، أيام البايات، وخلال مرحلة طويلة كانت تجمع

أعدادا كبيرة من الأجانب من المالطيين والإيطاليين واليهود، انتبه الوالد في الأثناء إلى أن ابنه في حال من الإرهاق، ويحاول التمدد على الأريكة..

- أتركك تستريح.. ولكن قل لي أين برنامجك الإذاعي لم نسمعه بالأمس.؟.

- لقد جاء مدير جديد للإذاعة وأوقفه، سأحاول ببعض التدخلات إرجاعه..

- لا عليك، الرزق يأتي من باب واحد.. لقد ذكرتني بأحد التجار الذين عملت معهم، كان شديد الحرص على الإستزادة من المداخيل، كنت أقول له يكفي بات الرزق هيا نغلق المحل، فيرد، لعل هنالك زبائن قادمين، فأنت لا تعلم حلاوة عمليات البيع في الساعات المتأخرة من الليل، وأنصاع لرغبته وما هي إلا دقائق حتى تلفظ بعض الحانات المجاورة ندماءها، فيقبل بعضهم على المحل ويعيثون فيه فسادا، وعندما يحاول صاحبنا إخفاء علامات خيبته المرة، أذكره بحلاوة فلوس البيع آخر الليل، أتركك الآن تستريح سأستعد للصلاة..

2

همس الأول. اكتب ولا تعجل.. وتبصر قبل أن تخوض في بحر المقال..

أردف الثاني..أحسن خطك..

قال الثالث.. الصحافة موهبة أو لا تكون.. إما أن تكون صحفيا، أو لا..

أضاف رابع.. من المستحيل أن تكون يوما ما واحدا من عمالقة السلطة الرابعة، وإلا جزمنا أن هذه المهنة باتت وبلا ريب مستباحة لمن هب ودب..

نصح خامس.. أرهف السمع لمن سبقوك وأصغ لمن يريدون لك الخير ولا تستنكف من الإستماع لتوجيه الكبار.. نار الشباب لا غنى لها عن نور الشيوخ كما يقولون..

لم يجرؤ سامح على الإجابة، خاض الجالسون والواقفون في قاعة التحرير في مواضيع أخرى، فانطلق خياله وسمع في داخله جوابه.. يا لها من مضحكات مبكيات.. موعود بكل هذا.. ومقدورك أن تحتمل مثل هذا الإيذاء ممن يعدون أنفسهم أوصياء على الصحافة، وقد يستظهرون عند الإقتضاء بشهادة ملكية أو عقد احتكار، دع الزمان يفعل فعله..

شخص ببصره إلى محيا واحد من الجالسين، فانتهز الأخير الفرصة ليكيل له المزيد..
- من أنت حتى تحسب أنك صحفي مرشح للتفوق على كل هؤلاء.. إننا لن نتفاجأ إذا عما قريب أنك وضعت نظرية جديدة في الصحافة..

أطرق سامح قليلا وقبل أن يغرق من جديد في همومه، سمع صوتا يناديه..
- ارفع رأسك يا أخي.. هناك من يطلبك..
- من.. أين هو..
- بل هي زائرة أنيقة، شقراء، هي مطربة تقول أنك أجريت معها حوارا، وجاءت لتعبر عن شكرها لك..

تنفس سامح الصعداء، ما من شك أنها العناية الإلهية تدخلت لتنتشله من براثن تلك الجماعة، اتجه صوب قاعة الإنتظار في مدخل الجريدة، كانت بالفعل مطربة ناشئة حضرت لتشكره بكل

عفوية تعبيرا عن امتنانها للحوار المطول الذي أجراه معها ونشر مع صورة لها في غلاف ملحق الجريدة..

غادر معها الجريدة، في الطريق تعرفت عليها سيدة فاحتضنتها واشارت أنها سمعتها في سهرة ليلة أمس في الإذاعة وأن صوتها شديد الشبه بأم كلثوم..

افترقا قرب فندق يتوسط شارعا رئيسيا بالعاصمة، دخله سامح، سأل في الإستقبال عن غرفة الفنان وديع الصافي، تحدث له في الهاتف الداخلي فطلب منه الصعود لجناحه، بعد دقائق فتح الباب، استقبله واحد من أبناء وديع بحفاوة، أدخله إلى قاعة الجلوس، لم يطل انتظاره وحل وديع الصافي استقبله بابتسامته العريضة و كلماته الجذلى وهمساته الرقيقة المشجعة.. تحدث مطرب المطربين عن مسيرته بمراحلها الخمسة، ونزل عند رغبة ضيفه وعزف وغنى..

شعر سامح أنه التقى طودا عظيما، فنا وموهبة وذوقا وتواضعا، غادر الفندق وهو على يقين أنه يحمل معه صيدا ثمينا..

صادفه في الطريق الصحفي منير وقد استقال أو أقيل من صحيفة أسبوعية بعد سنوات من العمل المضني، أعطى خلالها بلا كلل.. بثه شكواه وقص عليه ما جرى من مدير الجريدة الذي ترفع عن تمكينه من البطاقة الحمراء، بطاقة صحفي محترف، ولما أكره على المغادرة، سمع أنه يحدث بقية الصحفيين يدعوهم للنسج على منواله، بوصفه صحفيا مثاليا ومثابرا.. يا لها من مفارقة.. سأل سامح ربه أن تكون نادرة لا تتكرر كثيرا، مع ضحايا آخرين..

عندما عاد للجريدة اتصل بالإذاعي صالح جغام، وبالمنتج طاهر المليجي فحصل منهما على هواتف عدد من نجوم الفن العربي.. وحاول الإتصال في البدء بموسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب.. ردت على الطرف الآخر من الهاتف سيدة اعتذرت لأن الفنان مشغول.. كرر سامح المحاولات حتى ظفر بحوار مطول مع الموسيقار.. أحس أن الصعب ممكن.. النجاح يولد النجاح.. حاول الظفر بآخرين فأفلح في قنص نجيب محفوظ، مصطفى أمين، سيد مكاوي، نجاة الصغيرة، سكينة فؤاد، وحمدي غيث، ونور الشريف، وآخرين...

توالت اللقاءات، وكانت بمثابة الخبطات الصحفية التي لم يأتها الآخرون..
تعددت لقاءاته بنجوم الفن والثقافة، والإذاعة والتلفزيون، وسرعان ما اكتسب ودهم وصداقتهم واحترامهم..

حملت له الأيام لقاءا سعيدا ،كان بمثابة الهدية والمفاجأة الذهبية..لم يصدق أنه سيلتقي بسيدة الإذاعة وأميرة برامج الأطفال السيدة علياء التي طالما استمع واستمتع بـ"جنة أطفالها"، هناك في الإذاعة كان اللقاء، ولكنها هذه المرة حضرت خصيصا من أجل اللقاء.. فقد كانت بعد 4 عقود من العمل الإذاعي، توقفت عن زيارة الأستوديو لأسباب ما..

حدثته بثقة واعتزاز عن تاريخها الإذاعي الحافل عن وجوهها الأخرى التي لا يعرفها من هم في سنه، عن خدمتها للثورة الجزائرية والمرأة.. وعن حبها للسفر..

نجح سامح في لقاء عشرات النجوم الذين يحبهم الناس، ويتطلع القراء لأخبارهم ولمطالعة مقابلاتهم على أعمدة الجريدة.. وأصبح سامح صحفيا يطلبه الفنانون لدعوته إلى حفلاتهم ولإحاطته بآخر أخبارهم..

لم يتفاجأ هذا الصباح بوصول من يطلب مقابلته، إنها سيدة مرفوقة بابنتها سنيا مبارك، جلسا قبالته، بينما تحول الوالد للقاء المسؤولين، تحدثت البنت عن موهبتها وحبها للفن وتعلقها بالعود وطموحها الجارف في عالم الموسيقى.نشر الحوار.. بعد فترة تردد في أصداء مهرجان الأغنية التونسية ضمن دورته الأولى صدى صوت سنية مناديا: خلي الحزن بعيد عليك.. كانت بين النجوم التي منحها الناس الحب.. وتفاعل معها الصحفي بأذنه وقلبه وكأنما سألته من حيث لا تدري، أن يتسلح بالمزيد من الأمل والثقة، وأن يطلق أحزانه إلى غير رجعة..

3

ظل سامح من الصحفيين الذين، يأكلون الخبز ويمشون في الأسواق، يلتقي أشهر الناس، محمد بن علي، أو علي ولد أمي تراكي، حسن الخلصي، نعمة، سلاف والآخرين و لكنه يجالس الشباب و الطلبة و العمال و يحاول رسم هموم و هواجس كل الطبقات.. ما الذي تغير، إنه هو هو.. يتابع حياة النجوم، وتصوير المسلسلات والأفلام ويلتقي الأبطال والمبدعين.. ولكنه يمشي إلى الحفاة الساكنين القرى والجبال والفيافي والوديان خلف ضواحي العاصمة، ويخالط أبناء الشعب يستطلع شواغلهم ويستدر المعاني الصادقة التي تحكي نبض المجتمع وحقيقة وعي الناس ولاوعيهم..

تماما مثل فوران دم الشباب في عروقه، انسابت عبر مقالاته مطامح الشباب وتطلعات الجيل في كافة الميادين إلى حياة جديدة غنية بالفرح والنجاح والآمال المتجددة.. حاور الشباب قبل موعد الحوار مع الشباب، وبث شواغله إذاعة وتلفزة، وقبل انطلاق قناتيه السمعية والبصرية..

وظل سامح يسير في كافة دروب المجتمع يرصد ويكتب،يدون ويرسم ثم يبصم.. ولم تتوقف زفرات بعضهم الشاكية..

- ماذا يعني هذا.. لا معنى على الإطلاق.. إنه ببساطة يدعي في كل شيء فلسفة..
- لا بل هو نموذج للصحفي الناجح والوفي للجريدة وللحرية والحقيقة.. ألا يذكرك ببداياتك يا فريد..
- أعتذر، يبدو أنك ستعود للتنظير، يا سيد سبينوزا، عفوا هيدغر..
- شكرا يا صاحب كلب قلقامش.. الغيرة تعمل..

فتح بلال مذياعه الصغير، انبعث صوت كوكب الشرق، مرددة، أغار من نسمة الجنوب..

أطل الحاجب، صاح بنبرته الضاحكة:

- ابكي عالورد ذبل في بستانه.. تسمع في أم كلثوم بابا؟..
- نعم؟..
- عليك بدوا الفار.. وإلا بالنفة.. هل هنالك مقالات جاهزة للمطبعة، الوقت تأخر..

وصل حمدي الخطاط، وضع حقيبته الكبرى على مكتب تعود الإشتغال عليه..

- أهلا بك سي سامح، سأريك اليوم خطا لم أستعمله في رسم العناوين من قبل، لقد أعجب كثيرين وأنا أستعمله في دعوات الأفراح، وأنا على ذمتك إن كانت لديك أية مناسبة سعيدة..

جاء رئيس التحرير وقف بجوار سامح، ربت على كتفه..
- من حسن الحظ أنك لا تكتب، ستذهب للجامعة، أنت مازلت مرسما بها وستقوم بإجراء تحقيق مع الطلبة حول ظروفهم الجامعية، الموضوع مهم جدا بالنسبة لجريدتنا، فهمت يا سامح، لا بد أن نكتسح الجامعة.. هذه المرة لن تصطحب معك مصورا تفاديا للمشاكل.. نعول عليك كثيرا..

أحس سامح أن تكليفه بالمهمة الجديدة يعني أن الجريدة تزيد من ثقتها، ومراهنتها عليه، غادر على الفور في اتجاه الكلية.. لم يكن الأمر هينا، بالنسبة لجريدته الرسمية وفي الظروف التي تمر بها الجامعة، والتي تشبه المخاض العسير..

فقد عايش أجواء التجمعات والإجتماعات والصراعات وهرج الملل والنحل والطوائف خلال أشهر سنته الأولى بالجامعة، وعاش الكثير من الحوادث والأحداث العصيبة.. كان يعي جيدا أنه لا مجال للفشل، و لا داعي للإلتفات إلى الخلف، تمتم بدعائه، ثم اتصل بالإدارة ودعا الطلبة للحضور لمقابلته في إحدى القاعات، حضر عدد قليل من الطلبة ولكنها كانت في نظر سامح عينة كافية لإجراء تحقيق أولي، ازداد الشد العصبي والضغط والتهديد على امتداد التحقيق، حيث أطل بعض الطلبة تباعا يراقبون ما يجري مع "الزائر المشبوه" من الجريدة إياها.

كان التحقيق بمثابة الفتح في نشاطه الصحفي و في الجريدة، أعلمه رئيس التحرير أنه أصبح رجل المهمات الصعبة، بعدها كلف بتحقيقات قادته إلى تخوم الخطر.. وفي كل مرة لم يكن يرجع صفر اليدين..

كان في "طلعاته" الصحفية خارج الجريدة يحمل معه فضوله الهازىء بالمجهول، يداعب الكوامن، يترصد أمام العرين، فيظفر بالصيد الموعود..
كان في كل منها يتعلم، يستمع ويستفيد ..

عندما التقى بزمرة من رجال الحركة الوطنية من بينهم الباهي الأدغم والفيلالي وادريس والرباعي.. غمرته نخوة التواصل مع جيل العطاء الكبير..

وحينما جالس المنجي خزندار نجل أمير الشعراء الشاذلي خزندار،انتبه إلى أنه يقف على مخزون زاخر بالأدب والحضارة والتاريخ..

ولما أنصت إلى محاضرات الشيخ الفاضل بن عاشور والأستاذ مصطفى أمين، ونسخها أحس أنه حظي بلحظات مهيبة نادرة مع اثنين من عظماء الثقافة والفكر والإعلام..

كانت فرحته الكبرى عندما يعود غانما، و يلقى الإستبشار في وجه رئيس التحرير.. أو عندما يحس أن الناس يقرأون ما يكتب..

وما أشد مرارة ذلك الشعور القاسي الذي يجثم عليه عندما يوقن من قرار الإمتناع عن النشر.. وفي هذه الحالة لا بد من القبول، طبق ثم.. لا تناقش..
الصبر، و لا غير الصبر سلاحه ..

سمع مرة محاضرا أجنبيا في دورة تكوينية للصحفيين يؤكد أنه تم اكتشاف مرض لا يصيب إلا الصحفيين..
الخطر يهدد الصحفي، إذن، و في كل حين..
التعب والمنية ترقبه من كل جانب..
الصحفي يموت واقفا، إلى جانب سلاحه، قلمه..

4

هرع سامح مهرولا، يحاول تدارك ما فات من وقت في انتظار القطار الذي تأخر على غير العادة.. هاله مشهد أعداد من الموظفين المتوقفين أمام مقهى يحتسون القهوة على مهل، و يجترون معها أحاديث بدت له عقيمة لم تجاوز تعاليق مبتذلة عن تصرفات الحكم اللعين وغلطات المدرب الأرعن، ومساعده الأخرق، وعن فرص مهدورة، مثل وقتهم الضائع، في مقابلة الدربي بين الإفريقي والترجي لمساء أمس..

سال منه عرق كثير، طأطا رأسه، دالفا إلى رواق الكوليزي، ارتفعت طقطقة الأكواب والفناجين مع اقترابه من المقهى الشهير، دنا من قاعة السينما، واجهته صور من مشاهد فيلم الاسبوع، غذ السير، فتناهى لمسمعه دردشة شاب وفتاة يتواعدان، حاول تجاهل ما سمع وقد تخضل جبينه الندي، سارع لمغادرة المكان من أقرب

مخارجه..

صادف قبالته عددا من العاملين يستعدون لافتتاح يوم جديد، ماسحو الأحذية وعمال مطعم قريب وعدد من المنظفين البلديين..
دخل مكتب البنك، سأل عن الراتب الشهري، الذي يتوقع أن يحول له عبر حسابه البنكي الجديد، أفادته الموظفة، كما تكهن أنه لم ينزل بعد للحساب.. غادر سائلا الله مزيدا من الصبر لمكابدة الإنتظار..
تذكر همسة والده ومداعبته حين أخبره أن مكافآت المتعاونين في الصحافة تتأخر ولا تلتزم بموعد محدد، فأجاب معلقا: بحري والعشاء منه..
وتذكر وهو يرى عددا من النسوة يهرعن في اتجاهات مختلفة، إنهن يركضن خلف الخبزة..
أحصى في طريقه للجريدة نحو عشرة مقاه، تساءل في قرارة نفسه كم من الطاقات والوقت والمقدرات تهدر والعالم يحلق عاليا وبعيدا يروم استكشاف مجاهل الكون في تخوم الفضاء..
والعالم هنا يعمر ورقة بروموسبور، ويرتشف النار.. جيلة، ويغني هل رأى الحب سكارى مثلنا..
قطعا لا لم ير..

كان يرى ما يؤلمه، وهو يحس بوجع مضاعف، ورغبة جامحة في الصراخ في الناس لفضح الخلل والإحتجاج على اللامعقول..
تردد في داخله أن الصحافة رسالة، والكتابة معاناة إذا اقترنت بحس صادق، ووعي شفيف، وأمانة ومسؤولية..
فالشقي الشقي من كان مثلي في حساسيتي ورقة نفسي.. على رأي الشابي في إحدى قصائده..

زاره ذلك اليوم أستاذ الثانوي الذي درسه العربية ليقدمه لصديق له.. مؤكدا بفخر، هذا الصحفي تلميذي، إنه مثال للجدية والتميز منذ سنوات الدراسة..

بعد مغادرتهما، تفحص سامح قلمه، بشيء من الرضى، تذكر ما كتبت الشاعرة فاطمة الدريدي، في ضحكات عيون باكية..

لأن الكتابة بالضوء صعبة
وحرفي يهم لأبعد وثبة
وضواء نفسي ضجيج مهول
أعاصير صمت وشك وريبة
وأقلعتي وهبوب الرياح
تسطر في البدء أبعد خيبة..

وبالحبر أيضا كتابتك يا سامح صعبة، وذلك ما سطرته يد الأقدار للصحفي المسكون بحب صاحبة الجلالة المفتون بقلمه.. الذي إن أصيب بدائه لم يكن له إلا أن يلتمس دواءه فيه..

أعاد سامح إصدار خاطرة يومية في زاوية الصفحة الأخيرة، وحملها ملاحظاته وخواطره النقدية حول كل ما يرى في المجتمع..

انبرى يكتب بعفوية، يصور عيوب الناس، بطريقته وأسلوبه البعيد عن المباشرة والإحراج..

كتب هذه الخواطر في كل مكان،في البيت في الشارع في الإجازة..

كان يستمتع بها رغم أنه لم يكن يتلقى عنها أجرا، لأنها كانت السبيل لبث نفاثاته وفرصته للنصح والإشارة لمواطن الخلل، وهي الجزء الأكبر في رسالة الإعلامي والمثقف..

لذلك جاءت حبلى برؤاه وأفكاره وأحلامه وآلامه..

ورسمت الكثير من أوجه الحياة في المجتمع..

غدا سيتابع سامح محاضرة هامة للعربي أحمد زويل الحائز على جائزة نوبل، تابع روايته لشريط النجاح، أسفا على عدم نجاح العرب في استثمار مثل هذا العقل لحساب أمتهم..
حضره زخم المهرجانات والأغاني والكليبات وفضائيات الغناء الماجن، شتان بين الثرى والثريا..

في طريق عودته إلى الجريدة سمع أغنية جوليا، غابت شمس الحق.. وصار الفجر غروب.. أغنية شغلت الناس وملأت فضاءات المقاهي وحوانيت الكاسيت والأسواق، أطربت النفوس وإن لم تكف لتحرير الجنوب.. و رأى امرأة تهدهد ابنها وتلقنه كلمات سوقية وألوانا من السباب والشتائم.. صدمه الموقف، وسرعان ما لفت انتباهه صوت اصطدام سيارتين، عقبه شجار عنيف بين صاحبي السيارتين وقد توقفا وسط الطريق والتف حولهما عشرات الفضوليين وعلت أصوات مزامير العربات المعطلة مثل حال العرب، وسط لغط، متنافر وغريب.

عندما وصل للجريدة، أخبرته سندة موظفة المكتبة و التوثيق أن لديها مجموعة من البضائع تضم ملابس و أوان و مصوغ وأشياء أخرى مستوردة من تركيا للبيع بأثمان مناسبة.. وعدها بإعلام أهل الذكر في العائلة ومراجعتها عند الإقتضاء..

اتخذ موقعه المعتاد في قاعة التحرير.. دخل بلال سحب كرسيه، أشعل سيجارة، ولى وجهه تجاه الخارج عبر إحدى نوافذ القاعة، وغمغم..

- سامح ، من المهم أن تراجع بعض الجوانب في كتابتك، ليس المهم هو المعلومات، والكتابة بنسق موحد في كل الأغراض، هنالك أساليب واشكال صحفية يدرسونها في معهد الصحافة، أنا أنصحك، هاك مثلا هذا الخبر كما جاء في إحدى الصحف: لقد اعتمد شاه إيران المخلوع كليا على الوسطاء والسماسرة الأمريكيين بصورة خاصة من أمثال روكفلر في تسريب مليارات الدولارات من أموال إيران إلى صناديق البنوك والشركات الأمريكية لقاء مشاريع عادت بمردود ضعيف أو وهمي على البلاد فموضوع تسريب أموال إيران ملأت الصحف العالمية، فلو أن الصحف كتبت: وتقول صحيفة الفايننشال الأنجليزية، وكان روكفلر من أصدقاء الشاه واستطاع أن يحول كثيرا من أموال الشاه إلى بنوك شيزمانهاتن، أو سرد الصحفي مقدار الأموال التي صرفت على السلاح كأن يقول "ويتبين كما تقول صحيفة كذا أن الشاه بدد 18 مليون دولار على السلاح، أو حاول أن يتصل بأحد الإقتصاديين وسأله عن تقديره لأموال الشاه وما مصيرها لكان ذلك أوقع، أليس كذلك يا سي سامح؟

- بالتأكيد يا سي بلال، وأعلم جيدا أنك تنصحني، وسأعمل على الترسيم في معهد الصحافة في أقرب فرصة ممكنة، أشكرك..

في الأثناء علا صوت جلبة في الممر المجاور، خرج الجميع فإذا بمصلح وجمال في شجار عنيف وقد وقعا أرضا، حاول الحاضرون فض النزاع، ونجحوا بعد وصول خبر مفاده أن المدير على وشك الوصول..

استغرب أحد الحاضرين لأن المتخاصمين ابنا بلدة واحدة.. ولا يكادان يتصالحان حتى يدب الخلاف بينهما ويتترجم على

مرأى ومسمع الزملاء.. وعلق آخر..
- صغار العقول يهتمون دائما بتوافه الأمور..
- استعاد سامح مكانه في قاعة التحرير، نظر إلى فنجان قهوة، وقد وقعت به ذبابة تطارد ذوائب على أطرافه، رن الهاتف، رفع بلال السماعة، أعلم المخاطب بصوت حاد و واثق..
- سي بلال، الشرطة في الأسفل في انتظارك، أنهم فرقة مقاومة الإجرام، لا تحاول الهرب، لا تتأخر أنصحك.. قفل الخط، هوت السماعة بين أصابعه.. تجمدت فرائصه كأنما حط على رأسه الطير، ظل واجما صامتا للحظات، حتى سمع قهقهة مصدرها غرفة موزع الهاتف، رفع رأسه ثم هب كالسهم لاعنا ومزمجرا..
- عملتها مرة أخرى يا فرج، لقد أربكتني حقا، هذه المرة لن تفلت مني..
جاءت كاتبة المدير، ابتسمت لسامح..
- عندك ضيفة، ساحرة تبارك الله عليها، هي في انتظارك.. هنيئا لك..
- مبروك يا سي سامح، الله يرشنا ماللي بلك، لم أفهم هل هو ابله، أم هو يستغفلنا.. يا ما تحت السواهي.. همهم فريد
- صباح الخير، أنا شيماء مختصة في صنع التحف الفنية المزخرفة بأصداف البحر وأعرف أنك تشجع المواهب والهواة، أرجو أن يكون لنا نصيب، هذا الزورق أحضرته خصيصا لك هو هدية..
ألقى عليها سامح عددا من الأسئلة، ذهب في طلب المصور ليلتقط لها صورا تظهر فيها نماذج من أعمالها..
عادت الكاتبة، بابتسامة صفراء..
- أرجو المعذرة، سامح المدير يعقد اجتماعا بكافة أعضاء أسرة التحرير.. هو في مكتبه، تفضل..
جلس سامح في آخر الصف الثالث في المكتب المزدحم بالزملاء..

لم يتأخر المدير في الإفصاح عما جمعهم من أجله..
- لا بد من مضاعفة الجهد، حتى نرقى جميعا لمستوى النفس الجديد الذي تعرفه جريدتكم، كل منكم يتحمل مسؤولية كبيرة في الإرتقاء بمستوى الجريدة حتى نكسب رهان المنافسة، لا بد أن تباع الجريدة وأن لا تقتصر في مداخيلها على الدعم و بعض الإشتراكات، يؤسفني إفادتكم إن لدينا عجزا هائلا في الميزانية وتقرر التوقف عن إصدار ملحق الأحد.. لا بد من تغيير نسق العمل، أحيانا تنتابني الحيرة كيف تنتظرون أن أتوجه لكم بمثل هذا النداء، فأنا عابر سبيل وأنتم حجر الواد وأنتم مستقبل هذه الجريدة، شيئا من الجرأة وروح المبادرة والغيرة على جريدتكم.. فبينكم الكثير من الشباب والأقلام التي تحمل آمالنا، أين هي، لم أر منها ما يمكن أن يجعلني مطمئنا، سنسوي وضعية عدد من غير المرسمين، وسنحاول تطوير ظروف العمل، ولكن لن ننظر لمن يتقاعس ولا يقوم بالواجب، لم يعد أمامنا أي عذر لقد تابعتم الأخبار، لا وجود لمحظورات ومواضيع محرمة، بادروا ولا تنتظروا التعليمات، الطبيعة خلقها الله متوازنة من يتعب ينال ما يرضيه.. أنا علي يقين أن أملي لن يخيب وأن الرسالة وصلت.. يمكنكم المغادرة لأعمالكم..

كان سامح يهم بمغادرة مكتب المدير عندما استوقفه رئيس التحرير، أمسك بذراعه، وهمس..
- سامح أعتقد أنك سمعت كلام السيد المدير لا بد أن تجتهد وتتحلى بالمزيد من الجرأة ،وإلا سأغير اسمك من سامح إلى مادح..

لم ينه كلامه عندما توقفت علياء تعلوها ابتسامة قرأ فيها سامح التشفي .. وهي التي ما انفكت تنافسه بكافة الطرق ويبدو أنها اهتدت إلى أقصرها إلى قلب رئيس التحرير..

طأطأ سامح رأسه انسحب مغمغما بصوت غير مسموع..
لو تمنحون قلمي الأمان، سترون العجب العجاب، ولكن العين بصيرة،
بصيرة ويضيق قلمي ولا ينطلق يراعي ..

قابضا على قلمي . وأمضي

1

لم يكن يساوره شك، أن اباه الأقرب إلى النفس، يجاور روحه، ويحلم أن يتيح له القدر مده ببعض من عمره للتخفيف من وطأة السنين.. هو كان يهمس له عندما يتلقى في سنوات الصبا لمسات تشجيعه وحنوه الأبوي،.. سيأتي يوم أعيد لك بعض ما قدمت لي يا أبي..
- ربما في مقبرة سيدي عمر..

هو ذا اليوم، الأسد الذي سار في الأرض يعمل بلا كلل يزرع البسمات في وجوه من صادفه، يحفظ الأمانات في متجره، ويعمل ثم يعمل، ينقل قوارير الغاز إلى بيوت الحرفاء لجني بعض المال الإضافي، ويفاخر بأنه لم يأخذ في حياته يوم إجازة،حتى في عشيات الأحد كان يبتاع شيئا من الفلفل الأحمر ليرحيه فيبيعه في المتجر، لتحصيل شيء من المال الإضافي الذي يستعين به على

مصاريف عائلته..

هو ذاك الفارس آن له أن يترجل.. وقد أجبره ضعف البصر وعقده الثامن المثقل بمتاعب الشيخوخة، على التوقف عن العمل..
هو ذا الليث يقبع راقدا في الفراش، وقد جثم المرض على جسمه النحيل ..
من أين يأتي بالشجاعة كلها حتى يبارحه، حياه فرفع الوالد الممدد يده، وتحركت شفتاه داعيا ومودعا..

خلال أولى ساعات التدريب في قاعة الإعلامية بالجريدة، نودي على سامح فتحول لمكتب رئيس التحرير الذي أبلغه نعي أبيه..
أجهش سامح باكيا..
غدا ستودع الأب والمربي والصديق والرفيق..
غدا تودع الثرى أغلى حبيب..
سيفتقدك ،ستفتقده..كنتما كل شيء..
لم تنته الحكاية ولكن الله شاء..

- ستنهض الهامة من حيث رحت، بشكل قلم.. سيمضي الألم لأنني واقف هنا كما أنت، همة وصدقا وأمانة وقلما..
تنساب الدموع كما كان يسيل الحبر من مآقي الجريحة..
ضاع نصف الشجرة الصنوان.. ليته كان لنا نفس الزمان..
وتؤوينا الأقدار في الثرى بعد حين، في حفرة ، لا حفرتين..
ما أشبه حزن اليوم بأسى الأمس.. وما أشبه الليلة بالبارحة..

2

لم تتوقف عقارب الساعة ولم تنته الحياة برحيل الوالد ..
ظل سامح ينشد الأنس في وجوه الطيبين..

أهل البلد تماما مثل أبيه.. وجوههم من سمرة الأرض، وقلوبهم من زهرها اليانع.. يبحر في صفحات الناس، يطفو على طيبتهم، يجدف بين جبهاتهم وسواعدهم، ويعلو موجات عرقهم الذهبي.. حاملا قلمه يسير بين جبال القصرين وسهول سليانة وفيافي ققصة.. من حاسي الفريد وجبل بولحناش والسودان.. في ربوع أدركها بعد طول صبر على شظف العيش.. وضن الأيام والسنين، أدركها شعاع التضامن، فعاود البشر الأمل، وعانقوا الحياة واستعادوا طعم العزة والكرامة بعد سنوات الجمر..
طفق سامح يطارد فلول الحزن الساكن عيون المتعبين قبل أن يحل مد التضامن الدافىء..
هنا وهناك، يقوى الناس على الإبتسام، ويملكون للفرح حيلة.. ولكنهم لا ينسون أطوار الصبر وقصص العناء و أيام المكابدة، وقتامة البؤس والعذاب..

راح سامح يتابع انسياب فيض الأمل وفعله العجيب في النفوس والقلوب والضمائر..هنا عادت الروح..
هنا ولد الناس من جديد..
هنا بزغت شمس الحياة واحدة من مفاخر التغيير..
رأى بأم عينه ملامح التحول في حياة الناس البسطاء الذين لم تكن لهم حيلة ولا عائل..

تذكر يوم أن سمع صباح سبعة من نوفمبر وخلال برنامج يوم سعيد الذي قدمه صالح جغام بيان التحول الذي اختزن آمال المجموعة، وتدفق يومها مع الجموع فرح وهلل وهتف وأحس بصدق أن هذا مشروعه هو أيضا..

انطلق القلم من عقاله يسير في الأرض يسأل الناس يرصد حركة المشروع الرائع،يلاحق مسيرة البناء وجهد الفاعلين الفالحين المفلحين..

كتب سامح عن مفاتن جميلة أخاذة سحرته..
صاغ قصيدته غزلا بحسنائه الفاتنة..
كيف لا يجيد وصفها،وكيف لا يبوح بسحرها..
وكيف لا يقع الصحفي أسيرا لهواها..وهي من هي..
حرية..

3

غادر سامح القاعة في هدوء، مر بقسم التصوير واصطحب المصور لإجراء تحقيق خارجي عن إحدى الحرف التقليدية.. اتجها نحو الأسواق، عند وصولهما لباب البحر التفت سامح فرأى شابا يقرأ جريدة، إنه عدد اليوم من صحيفته، ودنا منه فإذا هو يتصفح أحد مقالاته انتباه شعور بالفخر والنخوة هزته نشوة لا توصف، تذكر على الفور موقفا لبيتهوفن وقد قامت عازفتان بتقديم قطعة موسيقية من تأليفه، فاغتبط بيتهوفن بمنظرهما وإن لم يسمع من غنائهما شيئا وكل ما استطاع أن يفهمه من شأنهم أن لذلك اللحن الذي كانوا يوقعونه سلطانا عظيما على نفسيهما فقد رآهما متأثرتين عند توقيعته أثرا شديدا ورأى صاحبة البيت وخادمتها وقد تركتا

ما كانتا تشتغلان به من شؤون البيت وأعماله ووقفتا للإستماع، وقد شلت أطرافهما وتهلل وجهيهما، وذهبتا ببصرهما في السماء كأنما تتبعان أثر تلك النغمات في طريقها إلى الملإ الأعلى حتى انتهت القطعة فاغرورقت عينا الفتاة الصغرى بالدموع وألقت الكبرى بنفسها بين ذراعي أمها وبكت بكاء شديدا..

استمر المشهد كما صوره المنفلوطي في ماجدولين، نهض بيتهوفن من مكانه ومشى إليهما وقال لهما إنني لم استطع أن اسمع شيئا من ألحانكما أيها الأصدقاء ولكنني استطعت أن أفهم أنها ألحان جميلة مؤثرة فتأثرت معكم وطربت لطربكم وقد كنت قبل أن تحل بي هذه النكبة التي ترونها أحب الموسيقى حبا شديدا ولا يلذ لي في الحياة شيء مثل استماعها، فهل تأذنون لي أن أنظر في دفتر الموسيقى فأقرأ القطعة التي كنتم توقعونها، فأومأوا إليه بالإيجاب فأكب على الصحيفة فلما وقع نظره على القطعة ورأى صاحبها خر رأسه حتى اصفر لونه وارتعدت يده وتفصد جبينه عرقا.. ثم أخذ يبكي بكاءا شديدا فانتبه القوم إليه ونهضوا من مكانهم مذعورين وأحاطوا به يسألونه ما خطبه، فأشار بإصبعه إلى عنوان القطعة فلم يفهموا ما يريد فقال :إنها قطعتي أيها الأصدقاء وأنا الموسيقي بيتهوفن فدهشوا جميعا..

وأما سامح فلم يملك أن ينبس ببنت شفة، إذ أشار له عون الأمن المكلف بحراسة مدخل المركز البريطاني الكائن بمدخل السوق، وبحركة صريحة وقاطعة، بالإبتعاد فورا، مومئا إلى المصور المرافق له بمنع التصوير.

همس سامح لزميله مشيرا للرجل الذي يقرأ مقاله.. لم أعد

4

سار سامح في ممر الجريدة، ذي الإنارة الخافتة ، بخطوات هادئة وئيدة، أحس بحركة في آخر الرواق، انفتح باب أحد المكاتب، أطل وجه سيدة تعلوه ابتسامة عريضة، صوب بصره إلى الأسفل، أحس أن الوجه يعنيه أعاد توجيه النظر في ذات الإتجاه، فابتدرته جيهان..

- سامح، مرحبا أنت هنا، يا محاسن الصدف..
- صباح الخير..
- ما لك مكتئب، وكأنك تحمل على كاهلك مآسي الدنيا، ابتسم إنك في زهرة العمر والمستقبل أمامك، سمعت أنك خاطب، والله فرحت لك..
- أشكرك يا جيهان، أرجو لك التوفيق والله يفرح قلبك بالمثل..
- لا أنا لا أفكر في مثل هذه المواضيع الثانوية، الحياة بزنس أولا تكون..
- عفوا؟
- أقصد استثمارات وصفقات وفرص لا بد من تثمينها.. و لدي فكرة لو تريد أن تنضم ستربح كثيرا.. تاجر صديق يستورد البضائع من الخارج ويحتاج لتقوية رأسماله، نسبة الربح الصافي لكل مساهم لا تقل عن 20 بالمائة تصرف كل شهر.. إنه ذهب خالص..
- دعيني أفكر، غدا أجيبك..

دخل سامح المكتب، وضع محفظته على منضدة قرب الباب، وتوقف قرب النافذة يرقب الحركة النشطة في الخارج، عشرات من الطلبة والعملة والموظفين يسيرون في طريقهم نحو

غايات شتى، رفع بصره إلى الأعلى.. تذكر أن لديه الكثير من الأعمال،ولابد أن يشد الهمة حتى يجني المزيد من المداخيل بما يضمن مواجهة مصاريف الخطوبة، ومساعدة أسرته التي تحتاج لمساندته المادية فقد توقف أبوه عن النشاط، و كل أشقائه في طور الدراسة، و الكل يعلق عليه آماله، و أمه ترتقب أن يحقق حلمها باقتناء آلة الخياطة الموعودة..

سحب بعضا من أوراق «البيفتاك» شرع في تحرير مقال بيئي لفائدة صحيفة فلاحية فتحت له الباب، فانخرط على حد تعبير أحدهم في سياق تعدد «البيجات» الذي لا يخلو من مجازفة ممزوجة بالخيانة..

وصل فريد، وقد سبقته رائحة فنجانه وصوت ارتشافته المعتادة المسموعة منذ أول المعبر..
- صباح الخير سي سامح، تكتب كالعادة، ماشاءالله عليك، أنصحك بأن تضع السينوج أو الفيسوخ، حتى لا تصيبك عين، ما هو موضوع مقالة اليوم..
- التصحر..
- التصحر يا عائشة، وهل تأمل بهذا الموضوع أن تشد القارىء؟
- نعم البيئة شأن حيوي و سيكون لها شأن كبير بالنسبة للإنسانية، وهذه الظاهرة تزحف و تلتهم مقدرات البلاد و مواردها الطبيعية، وهي آفة يمكن صدها، والإشكال الكبير يكمن في تصحر العقول، التصحر الفكري..
- ننتظر أن يطالعنا اسمك في لائحة جائزة نوبل لهذه السنة..
- كأنك حاضر، وسأترشح بهذا المقال، في مسابقة أحسن إنتاج صحفي التي تقيمها جمعية الصحفيين ..

- لا أنصحك..

دخل بلال في مظهر أنيق ،وقد ارتدى بدلة جديدة، وقد وضع ولأول مرة ربطة عنق ذات ألوان زاهية، رفع يده محييا، ثم همس.

- bonjour tout le monde
- صباح الحب، يظهر لي كان صدقني ربي مستر بلال ..
- هو بعينه.. وحتى أريحك من مسلسل أسئلتك العقيمة، عندي رنديفو.. أما ابكي على سامح عمرو ما مشى مع واحدة..
- لا تقلق راحته إنه بصدد الولادة، أقصد التصحر..
- يكفي من الكساد، لقد اهتديت للدواء، وداوني بالتي كانت هي الداء..
- هل سيكون مشروعا حقيقيا، أم إنها سيجارة وترميها..
- ça dépend
- تقصد إنت واللياقة البدنية..
- tout a fait
- ما قصتك مع لغة فولتير اليوم.. هل نسيت لغتك الأم.؟.
- moi jamais أما لو شفتم عينيه حلوين قد إيه، نستني في باب وامي..
- انت ظاهر هاربة بيك فرس

لم يقو سامح على مزيد التركيز، رفع رأسه التفت بهدوء تفرس في وجه بلال و هو يسحب بعمق نفسا من سيجارته، رأى التجاعيد التي عبرت مساحات من وجنتيه، مسطرة أخاديد طويلة، تساءل عن سر مثل هذه الحركات المتصابية للرجل الذي طالما تحدث عن تاريخه الصحفي الحافل، وتندر مرة متبجحا بمعاقبته

للمطرب عبد الحليم حافظ عندما تأخر في النزول من غرفته بالفندق، خلال زيارته الثانية لتونس، ولما وصل لقاعة الإستقبال، انسحب بلال، على حد زعمه، وقد قرر حرمانه من المقابلة..
هكذا تردي النزوة العملاق الذي أهان العندليب، فيقبع مرتقبا حضور شختورة قد تكون في عمر ابنته، وقد تحمل معها وردة حمراء..
سمع صوته المتهدج يردد ..أنا العصفور في وكري نغني..

تذكر ما كتب جبران خليل جبران عن المرأة التي انكسرت ضحية وحش شبيه ببلال.. انسابت ظلاماتها على لسانه.. نعم أنا مظلومة أنا شهيدة الحيوان المختبىء في الإنسان، أنا زهرة مسحوقة تحت الأقدام، كنت جالسة على حافة ذلك الينبوع عندما مر راكبا.. قد خاطبني بلطف و رقة، و قال لي إني جميلة و إنه قد أحبني فلا يتركني، وإن البرية مملوءة وحشة، والأودية هي مساكن الطيور وبنات آوى.. ثم التوى علي وضمني إلى صدره وقبلني، و كنت لم أذق حتى تلك الساعة طعم القبلة لأني كنت يتيمة متروكة..

أردفني خلفه على ظهر الجواد وجاء بي إلى بيت جميل منفرد،ثم أتى بالملابس الحريرية، والعطور الزكية، والمآكل اللذيذة والمشارب الطيبة..

فعل كل ذلك مبتسما ساترا بشاعة ميوله وحيوانية مرامه، بالكلام اللطيف و الإشارات المستحبة.. و بعد أن أشبع شهواته من جسدي، وأثقل باللذة نفسي، غادرني تاركا في أحشائي شعلة حية ملتهبة، تغذت من كبدي، و نمت بسرعة، ثم خرجت إلى هذه الظلمة من بين دخان الأوجاع و مرارة العويل..

وهكذا واصلت المسكينة رواية محنتها على لسان جبران في عرائس المروج

- قسمت حياتي إلى شطرين، شطر ضعيف متألم وشطر صغير يصرخ في هدوء الليل طالبا الرجوع إلى الفضاء الواسع.. في ذلك البيت المنفرد تركني الظلوم ورضيعي، نقاسي مضض الجوع والبرد والوحدة، لا معين لنا غير البكاء والنحيب، ولا سمير سوى الخوف والهواجس..

كان سامح، يبحث عن وصمة الجرم في وجه الظلوم، بلال، وكل الدلائل تؤكد أنه عدو للمرأة، للبراءة، للطبيعة، ولناموس الحياة..

أولم تحضر ابنته مرة للجريدة تطلب بعض المال لمواجهة أعباء الدراسة فنهرها محذرا إياها من معاودة الإتصال به؟

تخيل سامح حال طليقة بلال، و معها ذهب خياله لعدد أكبر من الخائبين والمظلومين والمحرومين على قارعة الحياة، وهامش الحياة.

هؤلاء قطعا أولى بأن يكونوا محور اهتمامه وموضوع كتاباته، لو كان بيده تحديد المواضيع التي تفرد بالأولوية والعناية في الجريدة..

أنعم النظر في ورقته التي بدت بيضاء ناصعة، وقد مر نصف ساعة على وصوله، حاول البدء في كتابة جوهر المقال، على أن يعود للمقدمة والعناوين، بعد استكمال الجانب الرئيسي من الموضوع، واختيار خاتمة مناسبة chute كما يحلو لأكاديميي الصحافة تسميتها، عساها تشد الناس لقضايا البيئة التي باتت تستأثر باهتمام سامح ،وقد تناهى لمسمعه أن جمعية الصحفيين تفكر في تنظيم تظاهرة موجهة للإعلاميين بالشراكة مع جمعية بيئية..

- ماذا ننتظر منك يا سي سامح إن ربحت الجائزة؟
- ماذا تنتظر منه وهو جربي، يا جربي حانوتك طاح.. ارجع لبلادك وارتاح اضرب مرتك بالمفتاح..
- من أية بلدة تحديدا في جربة..
- حومة الأرباح،وادي الزبيب..
- طبيعي ولذلك أنت عسل صاف..coward
- do you mean mr bilal
- of course my friend

قبل أن يواصل بلال وفريد حوارهما الساخر من سامح..تدخل هذا الأخير..

- please try to be quiet i must finish this paper

صمت الجميع برهة من الزمن، وقد بهتوا لإجادة سامح الأنجليزية.. طاف خيال سامح مرة أخرى، تذكر واقعة حصلت لأبيه خلال أولى سنوات إقامته بالعاصمة، حيث ذهب للحمام وهناك سمع حوارا دار بين رجلين، كانا يتحدثان بلهجة الشلحة المتداولة آنذاك بين كبار أهل الجنوب، بصدد السخرية منه ومن قدمه الغليظة التي كانت على حد وصفهما تشبه قدم جمل.. و دارت الأيام وعمل الوالد بأحد المتاجر وكان الرجلان من بين زبائنه وتحولا سريعا لصديقين، وباغتهما مرة حين انبرى يتحدث لهما بالشلحة، وتذكرا واقعة الحمام و ما كان منهما إلا تقديم الإعتذار..

غادر سامح الجريدة بعد تسليم المقال،متجها صوب نزل قصر الشرق حيث تقام ندوة تجمع نخبة من الجمعيات البيئية،جلس خلال استراحة القهوة وحاور عددا من مسؤولي الجمعيات من

بينهم صديقه كريم عكروت رئيس جمعية أحباء البلفدير، واكتشفا أنهما فقدا أبويهما خلال الأسبوع المنقضي، سعد سامح بمواساة صديقه كريم وترحمه على روح والده..
- اللي خلف النبات ما مات.. كما يقولون.. ان شاء الله تكون ابنا صالحا تدعو له..
- كان أبي يقول لا أملك رزقا وفيرا ،ولكني أملك مجاديفه التي تجلبه وتقودني إليه وهم ابنائي..
- رحم الله والدينا جميعا..

غادر سامح الفندق، فجأة سمع صياح امرأة..
- شدوه سارق..
التفت فإذا بشاب يعدو كأنه يسابق الريح حاملا في يده عقدا، وامرأة طريحة الأرض، تبين أنها تعرضت للتو لعملية نشل..
وقف المارة مذهولين لم يجرؤ أي منهم على التدخل..
تسمر سامح في مكانه بلا حيلة، يتابع مأساة السيدة المولولة وهي تندب حظها العاثر..

5

جلس سامح يحضر لجهاز التسجيل ويثبت الشريط قبل البدء بمحاورة الشيخ إمام.. ابتسم الفنان العربي المعروف بأغانيه الملتزمة..
- مرحبا يا أستاذ سامح تفضل..

شرع سامح في طرح أسئلته على الفنان،وامتد شريط الحوار منسابا منذ طفولته الصعبة وحفظه القرآن مرورا برحلة

معاناته الطويلة من تعرضه للخداع والسلب في إحدى المقابر، حيث أوهمه خاطفوه بدعوته لتلاوة القرآن في موكب ديني، محطات حبسه المتكررة وحفلاته الفنية ولقائه الطويل بصديق العمر أحمد فؤاد نجم،وانفصالهما بسبب المطربة عزة بليغ..

عاد سامح بالحوار، لم يفكر حتى في مجرد محاولة اقتراح نشر المقابلة في جريدة.. و قام بنشره في مجلة للشباب، مصحوبا بصورة خاصة قدمها له الشيخ، ويظهر فيها بدون نظارات.
لم يكن بالمرة حوارا عاديا، وكان الرجل يعني الكثير للصحفي الشاب..

فقد حرص منذ سنوات على متابعة حفلاته، ومنها حفل له في فضاء القبة، نظمه اتحاد الشغل، حضره عدد كبير من الطلبة، الذين كان معظمهم من اليسار الذي التف حول الشيخ معتدين بغنائه النابع من آهات الكادحين، قدم الشيخ خلال السهرة و لأول مرة صوتا تونسيا ردد معه أغنيته: الحمد لرب مقتدر وسلام الله على البدر واللعنة نهديها طرا ل..
وكان اسم الصوت الجديد، الذي ما زال لحد ذلك الوقت نكرة.. نبيهة كراولي..
تذكر صولات الشيخ وجولاته في تلك السهرة، وتفاعل الجمهور معه، وبعضهم كان يردد، الله يشيخك يا شيخ..
كانت كلمات أغانيه بسيطة ولكنها كنت تهجم إلى الوعي..
كانت نبرة صوته هادرة ولكنها كانت تلامس شغاف القلب..
كانت نغماته واضحة بليغة وقوية، معنى ومغنى..
أصلي عالنبي قبل البداية، أبوح يا أبوح، هم مين واحنا مين، غيفارا مات، دور يا كلام على كيفك دور، دلي الشكارة، يا فلسطينية،

أتوب ازاي وأنا أيوب، سالمة يا سلامة، اصحي يا مصر..

أحس سامح أن أغانيه قريبة منه، هو يحلم أن ينجح في كتاباته، من حيث توفق إمام في معالجة قضايا مجتمعه وأهله ووطنه..

ردد في قرارة نفسه، هكذا يمكن أن يخدم المثقف الناس في عصره، فيكون معهم، وإن ضل عزفه المنفرد طريق السائد، و ارتفعت كلفته، وتحجرت أغانيه واجتهدت لجان الذوق العام في حبس الصوت وكتم الأنفاس..

وعندما سمع بنبإ رحيله لم يملك إلا أن كتب..

رجل أنت بقيمة أمة

الحرف عندك شرعة

والصوت نبل يرمى

يا شيخ

صلي على النبي قبل البداية

غني

وإن مات غيفارا

وكشرت الأحزان يوما

غني

في يدك عود قوال وجسور

لا تبك رفيقك « نجما»

جدد بالصدق

إيقاعك

بارودا يرميه الظلم

يضيء صوتك ليلا

فلماذا تحمل هما

في أذني صوتك
وإن زيفوا
وتاجروا
مر الكلام عندك
أصدق كلمة
ترميها في بطن الظلمة
تحبل
وتلد أفراحنا سلمى
أين من حاصروا صوتك
تبددت أحلامهم وهما
يا أيها الشيخ الذي
عاند الظلم
وراح في الزنازين
يطوف بأوجاعنا
غيمة
لم تبتغ في فنك
ثمنا بخسا
ما ذل عودك يوما
رتل آياتك
شيخنا
واصدح مناجاة ونغمة
قسما
يبقى صوتك رنانا
وتمضي أغانيك سهما
ويمتد موالك
بركانا

وقظ غفوتنا
كنسمة
وصرخاتك
تمتد في الشرايين
تزلزل عرش الجبن
وتحيي في عزيمتنا
أعظم همة

عندما عاد للجريدة، زاره الحاج سعيد أحد الصحفيين القدامي طالبا منه أن يتصل به في أقرب وقت، قبل أن يسافر في رحلته القادمة إلى المغرب ليوصيه بأمر هام..

مرت أيام وسافر سامح إلى المغرب، لمتابعة مهرجان سياحي للفنون الشعبية، انتبه عند المغادرة بالمطار لانتهاء مدة صلوحية جواز السفر، و تأخرت رحلته يومين استغرقهما تجديد الجواز بتدخل شخصي من مدير الجريدة..

عندما عاد من المغرب، اتصل به الحاج سعيد ساخطا معتكر المزاج، هم أن يعنفه، محتجا بتعلة أنه لم يتصل به قبل السفر..
- المعذرة يا حاج لقد طرأت بعض الظروف غير المتوقعة مما جعلني أنسى، ما كان الأمر الذي كنت ترغب أن تبلغني إياه؟
- كنت أريد أن أوصيك على قارورة ويسكي، من السوق الحرة في المطار فهي أقل كلفة وأفضل جودة..

صمت سامح وقد ارتخت أعضاؤه، ظل فاغرا فاه من هول

المفاجأة، أطرق برهة وبلا أي حراك، عندما غادر الحاج متمتما، دخل الحاجب مراد ليضع حزمة من الجرائد الخليجية على المنضدة، و قبل أن ينصرف كانت الأيدي قد امتدت تتسابق للظفر بأحدث الأعداد وافضل العناوين.

- انظر إلى الجرائد الحقيقية، اقرأ يا سامح وتمعن، لا بد أن تنظر لما هو أفضل حتى تطور نفسك..

ارتعش جسمه النحيل، التفت إلى بلال وأومأ له برأسه مشيرا أنه قبل النصيحة واستوعب الإشارة.. ما هي إلا هنيهة حتى عاد مراد حاملا ورقا قال إنه فاكس من صفاقس لفريد، و ظرفين صغيرين لسامح.. استلمهما وفتح الأول فإذا هي رسالة من مستمع يعمل بثكنة عسكرية واظب على قراءة خواطره وأرسل يعرب عن إعجابه..

فهم من عنوان الظرف الثاني الذي يحمل شعار جمعية الصحفيين التونسيين أنها دعوة لجلسة عامة، فتح الظرف فإذا هي دعوة لحضور الإحتفال بعيد الصحافة والذي سيقام بعد يومين بفضاء المسرح البلدي، وسيتسلم فيه جائزة.

كان سامح من أول الصحفيين الذين التحقوا بالمسرح، مساء اليوم الموعود، اتخذ مكانا في الصف الرابع، بينما جلس كثير من المسؤولين في الصف الأول.. بعد التشريفات و الفقرات الإحتفالية الأولى بدأ أعضاء مكتب الجمعية في الإعلان عن المتوجين، كانت الجائزة الكبرى من نصيب الصحفيين محمد كريشان وكلثوم السعفي، اللذين أسعفهما الحظ وكانا من أول الصحفيين التحاقا بقنوات تلفزية عربية خارج البلاد.

بعد دقائق طويلة وثقيلة، نودي على سامح وسلم الجائزة الثانية في اختصاص الطفولة، تسلم جائزته بأيد مرتجفة، لم يملك

النظر في وجوه مضيفيه على ركح المسرح، تعجل الرجوع وقد احمرت وجنتاه خجلا، في طريق عودته لمقعده، رأى مدير الجريدة يبتسم هامسا له..
- شكرا يا سامح لقد نورتنا..

عندما وصل إلى البيت، حاول جاهدا النوم، طاردته أفكار وطافت بباله خواطر، أحس باعتداد كبير بقلمه، و شعر بخفة ورغبة جامحة في الإنطلاق بعيدا في سماء الحرية..

حضرته همسات ميخائيل نعيمة وهو يقول.. ليس العبد من يباع ويشترى.. إنما العبد من قلبه سوق للنخاسة .. لذلك سكت والناس يهتفون.. لقد لمحت وجهك أيتها الحرية فعميت، و شممت طيبك فسكرت، و وجهك نور ترتد عند كليلة النهار، و طيبك من مسك ما تعطر بمثله قلب الليل ومن لمح وجهك مرة واحدة حجب عينيه عن كل وجه آخر، و من تعطر بطيبك مرة واحدة سد أنفه دون كل طيوب الأرض..

أغمض سامح جفنيه على أمل الإفاقة باكرا لافتتاح جولة جديدة من مغامرته في دنيا الكتابة..

حورية اللج . وأشذاء قلم

1

ما الحلم الذي يلاحقه في النوم أو في اليقظة، سوى حورية تسبح في موج من الرؤى والنور والحبر..
ما الشوق الذي يعتريه في الجريدة وفي كل مكان، إلا رجع صدى لضميره المتيقظ المسكون بحب الناس..

كان سامح يحلم أن يكون اسما مميزا بين زمرة المثقفين الذين يخدمون شعبهم ويسعد بهم المجتمع.. كتب.. من هو الذي يتوهم أن المثقفين صنف غير عادي من الناس يرتشفون القهوة على طريقتهم الخاصة بهم وينتجون شيئا ما يتعلق بالضرورة بتركيبتهم وخصوصياتهم ويقولون ويكتبون وفقا لطقوس الإستلهام القافزة على اليومي والعادي والمجنحة فوق المألوف عند البشر، فالمثقفون هم من طينة كل الناس ومن معدن البشر السامي، المعرض لمعاناة

اليومي، المضمخ بأبعاد النفس النقية الصافية المنحازة للخير والحب والسلم..

ويجدف سامح بقلمه، حالما بأن يكون واحدا ممن ينطبق عليهم حال المثقف الحامل للأمانة المتحمل للمسؤولية.. و لأن المبدع يقع من المجتمع موقع القلب من الجسد الحي والعقل.. و يبقى المثقف في بلدي مصدر فخر وموردا غنيا بالعطاء الذي لا يقاس ولا يثمن..

ويكتب سامح ممنيا النفس بعمل ثقافي وإبداعي طويل يفيد المجتمع.. و الميدان الثقافي يعني معاناة مزدوجة تتطلب الوعي والإصطبار ذلك أن كل عمل إبداعي ونشاط ثقافي ما يحمل بالضرورة نفحة من الروعة والسحر وطاقة إسعاد إلى جانب عنصر يخدم الذوق وينشر الجمال من خلال جودة العمل وصدق المبدع في تعامله مع الثقافة من منظورها الشمولي والقيمي..

لم يكن سامح سوى واحد من المتيمين بمعشوقتهم الحرية.. كانت حبيبتهم الملهمة خير مرافق لهم طوال حياتهم يؤنسهم طيفها ويعدهم بأيام سعيدة ملؤها الأمل والإطمئنان.. إنها الحلم الجميل الذي كتب على جبين طفولتهم.. و رافقهم رغم طول الإنتظار.. وأمتعهم في ليالي الغربة ومنحهم طاقة التفاؤل والسعي إلى هدفهم الغالي..عشاق الحرية كانوا وأقسموا أن يظلوا على حبل وفاء ودرع تضحية وافتداء..لأنها كانت لهم رمز الرجولة والكرامة والحياة..
واليوم وقد عانقوا مجالها الآمن واقتحم صدورهم اوكسيجينها الحيوي العبق.. وعمر قلوبهم دفئها الفريد.. تراهم يبشرون بنذورهم وأيمانهم .. ها هم اليوم في دولة الحرية ومجتمع التغيير يسيرون

في ركابها الميمون ويسايرون خطواتها.. و يستشرفون من خلالها آفاقهم الجميلة

وهم جميعا يملكون اليوم أن ينعموا بوصالها بعد أن طال البعد..وقد تتفاوت حظوظهم منها..

إنها فوق كل مقاييس الحسن ملكة الجمال..

وهي أعلى من قمم الفتنة والإغراء سيدة الأميرات..

وهي بين أضواء النجوم رائعة وباهرة..لكل ذلك ستهب الحرية في بلادي عشاقها كل الحب والخير..وستعطي من منحها الصبر قدرة جديدة على السير..

وستزود ملهميها المفتونين ملكة كتابة الشعر..إنها الرمز الأول والآخر لصبح قريب جاء يجيب على صوت انطلق ملء فم الغضب والتعب..وملء رجاء القلب..إنهم عشاق الحرية جاؤوها من كل حدب وصوب..من كل فئات الشعب يعاهدونها على الجد في إسعادها وإرضائها وحمايتها من أي مرتد..

2

بات يخامر سامح خاطر غريب يحيله في كل موعد ومقال، على نشيد محتدم داخله، كأنه البركان المؤجل..

أسئلة عسيرة وظلمة حالكة وأعاصير تتفاعل داخله، هل يقوى على مغالبة حركاتها المجنونة، هل يقوى على التجديف ضد التيار..

كم ردد في خلوة قلبه الغريبة في غربة أشواقه الخفية لصولة تعيد فتح الدنيا على حقيقة ما يجيش بداخله من حب شفيف للناس واحترام كبير للإنسان..

الحقيقة في كنهها وكليتها صعبة المنال..وجهد الكشف عنها مطمح كل الرجال..

يعتري سامح كل صباح انبهار متجدد بجمال الحرية، ويسكنه حب عذري وشفيف ورغبة قوية للصلاة في محرابها..
في زحمة الكتابة اليومية عن الأحداث والمستجدات، يواصل سامح إرسال همساته وزفراته الحبلى بصدق الشعور..
يا أيتها الحقيقة رقة و صدقا تطلين علي أفقا وتفتحين عينيك فتمحين شكوكي وتعيدين صوابي.. و يشع ثغرك يلهمني الصدق.. و يدعوني لشبابي..
ذلك الصبا.. في «حقك»عنفوان كلمة.. تصدعين بها شعرا، تطاردني في ليلي الضال.. و في صبحي التائه سحرا و تطلين علي بصفحتك القدسية تعيدين رسم خريطتي.. و تخضر مواطن الصحراء في.. و تعيد إلي بسمة براءتي .. قد أبكي في حضرتك.. و يحتمي خشوعي بالدموع.. و آسف لأني لم أفهم الموضوع..
لم يكتب اليراع قبلك قصيدة..
لم يكتشف شاعرة عنيدة..
ولم يصادف قبلك حكاية جميلة جديدة..
ولم يقابل صورة رقراقة وليدة..
من ثغرك المنساب..
بالشعر والشباب..
وتأسر الحقيقة الألباب..تعدل توازن الإنسان..
وأولد بكفك محبا للصفاء والجمال..
وتشتهي عروقك ضلوعي..
ينساب هواك في شرياني..المخضل..
وتفتحين قلبك فضاءا يحتويني..
وينظمني نبضك..
حقا..هكذا تزهر كل سنيني..

غمامة صيف..
عابرة *

* نشر بالملحق الثقافي لجريدة الحرية
الخميس 1 نوفمبر 2007

زار سامح مسقط رأسه يبتغي صلة الرحم واستطلاع أخبار العائلة.. رحل إلى هناك فاستقبلته القرية بهدوئها الحالم، و صمتها المحرض على التهويم والخيال.. مضت ثلاثة أيام رأى فيها سامح معالم من جمال بلدته الساحر.. كان في كل صباح يشعر أنه ينال جائزة كبرى بمجرد وجوده محفوفا بقوم يشعر متيقنا أنهم يتمنون أن ينعم بجنة الأرض الساكنة هذه القرية، و أن يستمر مقامه بينهم إلى ما لا نهاية، فهم يغدقون عليه من فيض فطرتهم البسيطة اللامعقولة، كرما وحبا وإيثارا.. و هم في ما رأى لا يرجون منه جزاءا ولا شكورا...

طال نومه ذاك الصباح، بينما أفاقت كل القرية مبكرا على غير عادتها في أيام الصيف القائظ، و قد دب فيها أمر غير معتاد، و انتشرت في أوصالها حركة غريبة فتحت العيون وحركت الأجساد.. ما الذي تراه حرك السواكن وأنعش الغافين و أيقظ الموتى من قبورها قبل الأوان؟

خبر وحيد تداولته الألسن، و مصدر فريد للإهتمام.. الحاجة سعيدة غادرت المنزل مبكرا، ولا يستبعد أن تكون بارحت القرية في ساعات الصباح الأولى.. إلى أين تراها قصدت، ما الذي أقظ مضجعها، ليس حتى وقتها المعتاد الذي تسقي فيه شجرها وترد على الفسقية، أو الماجل لسحب حاجتها اليومية من الماء، ولم تقصد حتى البئر البعيدة نسبيا لجلب الماء، هي لم تخرج ماعزها ودجاجها كما اعتادت كل يوم، ليسرح في الساحات المجاورة، هل تكون غادرت مريضة تبغي جلب كمية جديدة من دوائها الخاص الذي اعتادت أخذه بعلاج الفدة..؟؟ هو ليس يوم السوق الأسبوعية حتى تبكر في طلب حاجياتها المختلفة..

أسئلة كثيرة ترددت على ألسنة أبناء القرية وقد تجمعوا قريبا من باب جامع القرية..

- هل تراه بلغها خبر ما، ربي يسمعنا الخير؟

- ربما ذهبت لسحب حوالة بريدية أرسلها لها ابنها من تونس، فهو عائلها الوحيد..

- ربما لكن ليس بكل هذا الحرص، و لا حتى لو كأنها كانت تبغي شراء زوج من الأرانب بعد أن قضى الثعلب على رصيدها من الأرانب.. ربي يقدر الخير..

- لقد رأيتها تمشي مسرعة في اتجاه طرف القرية، و هي تحوقل وتدعو، تتمتم، و كأنها تتوعد أحدا، و قد لفت انتباهي أنها كانت ترتدي ملابس المناسبات ..

- مسكينة، عمرها جاوز السبعين، ولم تعرف بعد الراحة والأمان..

- ليس هذا وقت مثل هذا الكلام..

- إذن ما هو وقته ؟، إنها منا وإلينا، إنها أم الجميع، ها هو الشيخ عبد الستار قد حضر، لا شك أن لديه ما ينورنا به ويبدد حيرتنا.. صباح الخير يا شيخ.. سمعت بما حصل في قريتنا..

- طبعا سمع، إنه محرك القرية وهو ملح البلد، من ذا الذي يعلم إن كان الشيخ رقد..

- يكفي من الثرثرة والهراء.. إن كان قصدكم الحاجة سعيدة.. فقد جاءتني صباحا، كنت بصدد أداء صلاة الضحى عندما دفعت الباب وتوجهت صوب زوجتي بشرى وسط ساحة الدار..

- ماذا كان الخبر.. ما معنى أن تغادر المرأة الحكيمة البلدة بهذه الطريقة التي أقل ما يقال عنها إنها غير مألوفة، هل تعكرت صحتها لا سمح الله وذهبت تطلب مساعدة، أم..

- اصمت لحظة، أرجوك.. و دع الشيخ يكمل.. عجل وهات بيت القصيد يا شيخ الله يسترك..

- على حد قولها، والعهدة على من أخبرها..
- هل اتصل بها أحد، قلت لكم خروجها مبكرا بهذه الطريقة ليس مجانيا، العضمة ما تفول طق..
- أسكتوه، وإلا سأنصرف.. حسنا .. ابنها اتصل بها ليلة أمس وأخبرها أنه سمع من صديقه المهندس الذي يعمل بإحدى الوزارات أنهم يعتزمون..
- ماذا، تجنيد ابنها؟
- لا يا جحش..
- أنت والله تستحق أكثر من هذه الإهانة، ألم تتعلم الصمت والصبر، هل أنت سبوعي، والله إن لم تسكت لأوسعنك ضربا؟
-أخبره صاحبه أنه تقرر تركيز مصب للفضلات قرب بلدتنا، و هو ما سيجر معه الكثير من المشاكل المتوقعة على صحة المتساكنين جميعا، ولا شك أن الأمر أكثر خطورة وتعقيدا بالنسبة لأمنا سعيدة لأنها كما تعلمون عندها الفدة ولذلك كانت مرعوبة من الخبر، لأن المصب كما نعلم يتم فيه حرق الفضلات ومن ثم ستكون الأدخنة التي سيجود بها علينا كفيلا بتلويث طبيعتنا وتسميم الجو هنا..
- بابورك زمر يا قرية..
- لو صدق الخبر سينتهي أمرنا، سيموت صغارنا من جراء كثافة حركة شاحنات البلدية التي ستأتي بكثافة لإلقاء قمامتها ..
- بارك الله فيهم.. نحن ننتظر وصول الماء، وانظروا بماذا تكرموا علينا، لقد أحسست بكرب قادم وبأمر سيء سيحصل، ليلة أمس لم يداعب جفني النوم، لقد رأيت كوابيس لا أراكم الله..
- لم يحسم الأمر بعد لدينا فرصة، لا بد أن يزورونا ليأخذوا رأينا ولتحديد الموقع والقيام بالكثير من الإجراءات.. فنحن لم نر الفنيين بعد..

- على حد قولها، والعهدة على من أخبرها..
- هل اتصل بها أحد، قلت لكم خروجها مبكرا بهذه الطريقة ليس مجانيا، العضمة ما تقول طق..
- أسكتوه، وإلا سأنصرف.. حسنا .. ابنها اتصل بها ليلة أمس وأخبرها أنه سمع من صديقه المهندس الذي يعمل بإحدى الوزارات أنهم يعتزمون..
- ماذا، تجنيد ابنها؟
- لا يا جحش..
- أنت والله تستحق أكثر من هذه الإهانة، ألم تتعلم الصمت والصبر، هل أنت سبوعي، والله إن لم تسكت لأوسعنك ضربا؟
-أخبره صاحبه أنه تقرر تركيز مصب للفضلات قرب بلدتنا، و هو ما سيجر معه الكثير من المشاكل المتوقعة على صحة المتساكنين جميعا، ولا شك أن الأمر أكثر خطورة وتعقيدا بالنسبة لأمنا سعيدة لأنها كما تعلمون عندها الفدة ولذلك كانت مرعوبة من الخبر، لأن المصب كما نعلم يتم فيه حرق الفضلات ومن ثم ستكون الأدخنة التي سيجود بها علينا كفيلا بتلويث طبيعتنا وتسميم الجو هنا..
- بابورك زمر يا قرية..
- لو صدق الخبر سينتهي أمرنا، سيموت صغارنا من جراء كثافة حركة شاحنات البلدية التي ستأتي بكثافة لإلقاء قمامتها ..
- بارك الله فيهم.. نحن ننتظر وصول الماء، وانظروا بماذا تكرموا علينا، لقد أحسست بكرب قادم وبأمر سيء سيحصل، ليلة أمس لم يداعب جفني النوم، لقد رأيت كوابيس لا أراكم الله..
- لم يحسم الأمر بعد لدينا فرصة، لا بد أن يزورونا ليأخذوا رأينا ولتحديد الموقع والقيام بالكثير من الإجراءات.. فنحن لم نر الفنيين بعد..

- بلى لقد رايتهم، كانوا يستقلون سيارة إدارية بيضاء ذات لوحة معدنية حمراء، نزلوا غير بعيد من هنا قبل أسبوعين، ولما سألتهم هل أنتم جماعة الصوناد أجابوا بالإيجاب..
- خدعوك بقولهم صوناد..

كان جبين الشيخ يتفصد عرقا وقد اشتدت حرارة الشمس هذا الصباح..
- هل آتي لكم بحصيرة فنواصل حديثنا في الظلال تحت تلك الزيتونة..
- لا لا داعي، لا بد أن نختار من بيننا يمكن أن يتوجه إلى المدينة..
هدأت فورة اللغط، و حان من بدر الدين سؤال..
- ساورت البعض شكوك في صدقية الخبر تمنوا لو تتحقق، و سرعان ما قرروا ضرورة أخذ الخبر على محمل الجد والتحرك قبل فوات الأوان..
- ليته حقا يكون مجرد كذبة أو مزحة سمجة، حتى لا نصاب بنكبة أخرى فنحن لم نفق من موجة حزننا ولوعتنا، بعد نعي الشاب عبد الهادي الذي مات في مناورة تدريب على المروحية قبل موعد زفافه بأسبوعين..

غاص فتحي في لجة من التفكير، حاول مغالبة همومه رافعا رأسه نحو الشيخ الذي كان يحدق فيه بعينين لا تكادان ترمشان، و أومأ له أن تحدث إني سامعك..
- الحمد لله أنني ادخرت شيئا من المال، سأبيع كل شيء هنا وأشتري مسكنا صغيرا في المدينة..
- إن صح الخبر ستهوي قيمة المكان ولن تباع أملاكنا إلا بأبخس الأثمان..

- ولكنها قد تكون طلعة خبيثة من أحدهم، يريد أن يخرجنا من هذه المنطقة ليخلو له المكان فيقيم مشروعا سياحيا أو ما شابه..
- لا يعقل أن نقبل أن نصبح مستودع نفايات الآخرين، ونكون مصب قذارات البلدات الأخرى وسمومها، فالماء الملوث الذي ستفرزه الفضلات كفيل بتسميم الماء الباطني النادر هنا،وستكون الضربة القاضية على شجرنا وزرعنا وحتى حيواننا..

كانت كل القرية قد خرجت عن بكرة أبيها، تستطلع الخبر وتفكر بصوت عال في سبيل مواجهة الخبر الصاعقة إن صح..

فجأة جاء عدول الأبله معتوه القرية الملقب بالجربوع، كان يعرج عاري القدمين، قد عفر التراب وجهه، بما يوحي بأنه وقع حديثا على طابية، و أو كان يتوسد كومة تراب، قذف بنفسه وسط الجمع، لم يكن الناس مستعدين للضحك عليه وقبل أن ينهروه عاجلهم هازئا، و قد أطلق ضحكة هستيرية..
- والله جاءكم يوم، بعيني باش نراكم، تخلصو القديم والجديد، يا قوم يا حثالة هوني مصب الزبالة.. يا والله حالة..
قفز عدول مبتعدا، مسرعا خشية أن يعاجله بعضهم بحجر قبل أن يتفوه بالمزيد..

لم يكن أحد يملك أن يواري خوفه من القادم المجهول.. صمت الجميع وقد عصفت بهم الحيرة وفعلت الظنون فعلها، حاول الشيخ عبد الستار التهدئة من روعهم، و دعاهم لتوقع الخير..
رفع جبته وشد حزامه.. أخذ علبة النفة، أخرج منها حفنة أودعها تباعا في فتحتي أنفه الأفطس، سحب ساعته المتصلة بجيبه الداخلي الأصغر، تفحص فيها.. إنها الحادية عشر، لقد تأخر الوقت

- مسكينة الحاجة، لم تصبر حتى طلوع النهار، دائما هي مستعدة لمواجهة المصاعب والنوائب..
- ترى كيف سيكون حال الحي لو تحقق الأسوأ. وحصل المحظور.
- كيف سيعيش أبناؤنا، بل كيف سنواصل العيش وقد انسدت الدروب وغلقت الآفاق بأكوام القمامة، و ادلهمت السبل، وضجت البلدة بأزيز محركات الشاحنات، و سد الفضاء عبق القمامة بكل أنواعها المتعفنة..الله الله...

لفت الجميع أرداء الخوف والشك وضباب من الحيرة والقلق.. سكتوا كأن على رؤوسهم الطير.. حضرت شادية ابنة الشيخ حاملة طبقا به فناجين قهوة و أكواب حليب و كومة من السكر.. تهافتت الأيدي تتنافس على الظفر بما وقعت عليه..
- هل يكون الغد أسود كلون هذه القهوة فنندب حظنا العاثر، أم تنفرج و تتبدد المخاوف فنصلي صلاة الشكر.. ليتها تكون أضغاث أحلام..
- ما عند الله ليس ببعيد... يا رب نجنا من هذا المصير الموحش. اللي مكتوب عالجبين لازم تشوفو العين.. على أية حال سننتظر وصول الحاجة ونقرر في ما بعد ما نصنع..
- أنصحكم لا تسكتوا.. أنت عمدتنا يا شيخ لا تبقوا مكتوفي الأيدي في انتظار أن يحصل المحظور..

عادت شادية تمشي على استحياء.. أشارت لأبيها بوجود من يطلبه على الهاتف.. زمت شفتيها وطأطأت رأسها..
- إن شاء الله خير..

التحق بها الشيخ سريعا، غاب خمس دقائق، لم يجرؤ أي من الحاضرين على الإنسحاب، عاد وقد تهللت أسارير وجهه وعلت محياه علامات الإرتياح.. توسطهم وقد أخفى شفته العليا تحت شاربه، أطرق قليلا كأنما يقصد استنزاف ما لديهم من بقايا صبر

- ماذا هناك يا شيخ، نراك مستبشرا، هل من خبر سعيد.؟.
- الحمد لله، اطمئنوا.. هاتوا البشارة قبل كل شيء..
- هات الخبر أولا.. و لك ويبة درع.. و الا مخلاة لويز..
- لقد اتصل بي مراد ابن الحاجة من تونس، لأنه طلبها في البيت فلم تجب..
- مراد صاحب الخبر المشؤوم..
- على رسلك يا فتحي، لا تقطع يد السارق.. فعلا هناك مصب ولكن لن يقام هنا وكل ما في الأمر هناك مركز لتحويل النفايات سيقام على بعد 8 كيلومترات بعيد عن كل التجمعات بما فيها قريتنا ولن يكون مصبا بالمفهوم الذي نعرفه، فهو أشبه بالمختبر بل بالقاعات الحديثة المجهزة بالآلات العصرية، سنكون في مأمن من كل المشاكل.. أما الخبر الخاطىء فقد كان ناجما عن تقرير الفريق الفني الذي زار المنطقة لإجراء الدراسات الأولية والتحاليل الجيوفيزيائية التي بينت أن محيط البلدة لا يمكن أن يصلح لمثل هذا المشروع و ينتظر أن يسهم في تشغيل عدد من شبابنا أبناء القرى المجاورة..

لم يتم الشيخ كلامه حتى ظهر طيف الحاجة عن بعد تتحرك مكدودة، تتقدم بخطوات متثاقلة من طول المسير، سمع لهاثها من بعيد، و وصلت مسامعهم زفراتها الشاكية من شدة الحر، تحرك الجمع نحوها.. طالعتهم بتأكيد الخبر السعيد، لا مجال لبناء مصب للنفايات، تبددت غمائم الخبر المزعج، و يمكن للجميع مواصلة

الحلم في بلدتهم الهادئة، ومواصلة نسق الحياة المعتادة ..و بلا كوابيس..

عادت الخالة عزيزة إلى بيتها، فتحت الباب برفق، ألفت سامح وقد استيقظ، و لم يجرؤ على مغادرة البيت، قصت عليه ما جرى .. يومها فهم سامح أن البلدة مقبلة على أحداث جديدة وتغيرات هامة قد تحول و بشكل جذري وجه الحياة بالقرية..

ثرثرة حول فنجان الذكرى

كان الصيف في أوله، و شهر جويلية في مهده، و الصباح يطل متثائبا كعادته في مدينة البحر التي لا يهرب سامح منها إلا إليها وكيف يملك منها فكاكا وأهله فيها بحره وماؤه والهواء..

هذا يوم الأحد، لا موعد و لا التزامات عمل، تردد قبل أن يظفر بنسخة من جريدته من كشك «بوكسرى» هذا المكتبي الصامد كمثل جيب غريب للمقاومة في جبهة خمد أوارها، بين بوابتي سوقي الخضر والغلال و السمك، مغازة المشروبات المحرمة، ليسير في أنهج المدينة وقد عنت له فكرة التحول إلى قاعة عم الحبيب للحلاقة، تلك القاعة المحببة لقلبه، فقد شهدت استعداده، حلاقة وتجملا، قبل عقدين لحفل الخطوبة.. وعم الحبيب، حلاق مثالي لا يثرثر، و حديثه مريح وذو شجون..

عادت الذاكرة سريعا إلى أيام الصبا حيث كان عم الصادق الحلاق الأوحد، و وجهة سامح وشقيقيه، حيث كانت ماكينة الحلاق تفعل فعلها تنفيذا لتوصية الوالد، الذي كان لا يقبل بغير رؤوس خفيفة أشبه بوضع الجنود..

صادفه في طريقه إلى مقصده، صديق الدراسة نجم الدين، لم يره منذ سنوات، صافحه بيد رخوة ووجه متهلل، سأل كل عن أخبار العمل والعائلة، بدت العناوين الأولى مبشرة بمزيد من التفاصيل والأنباء الجديرة بجلسة مطولة بمقهى اللوح القريب المطل على شارع بورقيبة، لم يمانع سامح رغم عدم تحمسه لفكرة الجلوس الطويل على ناصية الطريق..

أخبر نجم صديقه برحلة عمله الناجحة إلى المملكة السعودية، حيث يعمل بإحدى الجامعات.. تذكر سامح رفيقهما الراحل، تنهد وأطرق ثم سأل نجم ..

- هل تقرأ لي؟

- طبعا أقرأ لك، و الكثير من أصدقائنا يتابعون مقالاتك و يسمعون برامجك الإذاعية، و يشاهدونك من حين لآخر.. و لكن قل لي هل تحس أنك حققت النجاح الذي كنت تحلم به؟

- منذ عدة سنوات كنت في بداية عهدي مع الصحافة المحترفة وكان أمرها يعني بالنسبة لي نقطة استفهام عملاقة وغموضا مبهما حول آفاق العمل وامتيازاته وجوانبه المشرقة «جوانب النجومية و الشهرة الإثراء»، اذكر أن الكتابة كانت تعني كذلك هذا الحلم بتحقيق انقلاب حقيقي تدريجي في نظرتي وتقديري لصاحبة الجلالة: الصحافة ومتاعبها ومتعها ...

داعب سامح ورقات ازدحمت بها قصاصات صغيرة من جريدته، تضمنت عددا من مقالاته التي عكف شهورا على تجميعها على أمل نشرها ضمن كتاب موحد، تماما كما صنع عديد الصحفيين أمثال جمال الكرماوي في تونس وأنيس منصور في مصر.. طالعته البطاقة الأولى فقرأ..

كلمات مميزات قيلت في أول عهدي بالاحتراف

كلمات قيلت حول الإعلام المكتوب ورجاله وآفاق نجاحهم

أذكر همسة أحد الزملاء هو اليوم رئيس تحرير إحدى الأسبوعيات مفادها أن قلة قليلة جدا من الصحافيين بإمكانهم النجاح التام وهو ما يستلزم منهم شيئا من الخبث و الدهاء أو بالأحرى إحكام التسرب عبر الشقوق المناسبة هكذا قال لي... واستغربت

حقا طبيعة هذا الكلام و لكنني راجعت استغرابي بعد ست سنوات و أنا أتابع نشاط بعض من اختاروا الإتجار بالكلمة سامحهم الله و قد توصلوا إلى حدّ ما ضمن صنف من العناوين طبعا خلقت سوقا كلامية «صحفية» و دلالين إلى تطوير هامش إعلامي مهمش للكلمة يراعي قواعد لعبة جديدة لا تحمل البصمة المعنوية الأدبية الأخلاقية لرجل المهنة العظيمة السامية.

و أذكر ما كان يقوله لي المرحوم صالح جغام وهو يحدثني مطولا عن غرائب الصحافة عندنا ومستويات وممارسات بعض أصحاب الأقلام.

ورغم أنه كان يتألم لتلك النواقص فإنه لم يكن يقصي عن مجلة الإذاعة والتلفزة الأقلام «الهاوية» بل أنه كان شديد التأثر و التظلم للظروف الصعبة التي يعيشها وجه الإعلام المكتوب و الأدب و كان يعمل على تحسيسي و تشريكي في التعبير عن هذا الوضع بالكتابة حيث طلب مني مرة إجراء لقاء مطول مع لاعب كرة القدم طارق ذياب مع التركيز على ثروته وممتلكاته وسياراته ومسبحه وفيلته الفاخرة و ... لأبرز الفارق بالنسبة لوضع الأديب عبد الله مالك القاسمي مثلا من الوجهة المادية و الإجتماعية لقد عرفت من خلال صالح جغام نموذجا حيا صادقا للرجل الذي عاش ليكتب ولم يعرف ولم يختر أن يكتب ليعيش لأن هذا ببساطة مخالف لتركيبته.. الواقع اليوم أنني لاحظت في محيط الرأي العام وجمهور القراء والمستمعين تصورات مغلوطة في عديد الأحيان عن الصحافي التونسي.

..سكت قليلا ثم استطرد.. هم يتصورون ببساطة أنه من أغنياء ... و أقوياء القوم و أقدرهم على التصرف بكل اقتدار.. و هم ينظرون بانبهار إلى ما لا يرون عبر السطور يتخيلون كل شيء عدا الواقع يتوهمون أننا سعداء بمجرد أننا نسافر في أرجاء الدنيا متى عن لنا ذلك ونسعد بالكتابة فهي ترف وفن ممتع ظريف.

وضع النادل فنجاني القهوة، و استمر سامح يقول.. نسعد بسهولة العمل والحصول على المعلومات ونلهو بتزييف الحقائق واختلاق الكذب المنمق. رأيت بأم عيني الصحافة تجرحها القلة القليلة من الأقلام والعدد الكبير من البسطاء الذين اعتمدوا حكما مسبقا ظالما للصحافي التونسي بأم قلمي انخرطت مع ستمائة زميل على الأقل في مهمة رفيعة أحببتها ووهبتها القلب والعقل والوقت والمستقبل والعاطفة... بأم ألمي أحسست بطبيعة متعة الكتابة التي بها ابتلينا..

تحدث نجم بدوره عن الظروف المادية المريحة لجل الإطارات العاملة بالخليج، فألفى سامح نفسه يطرح مشكلة الإمكانيات الضخمة التي يتمتع بها الوطن العربي، و التي لا تستثمر بشكل يخدم صالح كل شعوبه..
- لكنني في ما لاحظت من بعض المقالات التي طالعتها في الأعداد التي تصلنا هناك، لاحظت أنك مزيج من الرومانسية و الشكر أو التفاؤل المبالغ فيه.. ألا تحس أن الصحفي غير ذلك، أم إنك أديب متنكر في ثوب صحفي..

- أنا أقول لك يا سيدي وأنت افهم نفسك، تلك هي طريقتي، لا أهجم على الموضوع ولا أتهجم على موضوع النقد..

- هي التقية إذن..

- ربما لكن، على أية حال أنا لا أحس أن قلمي مسخر للمدح أو لابتغاء رضاء الأمير كما قال الشاعر، بل على النقيض، أنا شديد الإنشغال بالواقع العربي، و حساس لما يعرفه من وجع وتناقضات..

تثاءب ثم فرك عينيه كأنما سطرد النعاس من عينيه..

- لا أنسى مجادلاتك المطولة و نقاشاتك الجادة مع أساتذتنا.. الذين كانوا على ما يبدوا يستمتعون بذلك ويقدرون فيك ذلك التميز..

- لا يمكن يا نجم، و إن كنت تعمل في دولة خليجية، أن نرى هذه الأوضاع الصعبة و المعاناة الرهيبة لفئات من شعوب المنطقة و نبقى مكتوفي الأيدي..

- يبدو أنها ستكون رحلة ممتعة في عقلك وأدبك، كيف ترى في تقديرك أصل مشكلة هذا الوضع غير الطبيعي؟

- سأقرأ لك أيضا، يعزو الكثير من الملاحظين الموضوعين و المحللين لواقعنا العربي معضلاته المستفحلة و أزماته إلى غياب توظيف عقلاني مقابل احتكار بعض الإمكانات والموارد والمواقع من قبل قلة محدودة الكفاءة، كما أن المسخ و النسخ و التبعية هي صور للضعف و الوهن و العجز عن الإستمرار و التحصن من أخطار الضياع والإندثار.

كان نجم يرتشف من حين لآخر فنجانه، داعيا سامح للنسج على منواله، لعدم ترك قهوته تبرد.. فتح سامح قوسا طارئا ليذكر نجم أنه و إن لم يكن من رواد المقاهي، خبير بفنون القهوة..

- لقد ارتشفت الشاي من يد شقيقة المطربة معلومة بنت الميداح في نواكشوط، و القهوة مع عدد من الكشافين منهم رشاد خرباشي و منصف بن عرفة أيام العيد الأربعين للكشافة، في مقهى خان الخليلي، و القهوة الممزوجة بالهيل في شوارع قاسيون دمشق صحبة ابن البلد عاطف الفوراتي، أما في روما فقد اكتشف أن الكبوشينو لا تعني بالضرورة الكابوسان عندنا..

عندما دعاه نجم لمواصلة قراءة ما جادت به قريحته من طاحونة الشيء غير المعتاد، واصل سامح تحليله..» فلكي يتحول المجتمع العربي من مجتمع استهلاكي إلى مجتمع منتج في تحليل المفكر محمد حركات، وجب أن تتوفر له شروط و ظروف عامة تتيح له ضمان غذائه وملبسه ومسكنه وتعليمه، وأن يتوفر على سلاح عتيد لمواجهة أعدائه لتحقيق أمنه القومي وعلى صناعة منطورة لغزو الأسواق الخارجية ومما لاشك فيه أن بلوغ هذه الغايات بالأساس توافر مناخ سياسي، اجتماعي لتقييم الوسائل والجهود والطاقات المتوفرة ورسم الأهداف العامة الكفيلة بتكريم الإنسان العربي و ذلك بتفجير إمكانيات الذات العربية من أجل بلورة عقلانية فاعلة تعطي للهوية العربية مكانتها المرموقة وحجمها المعقول أمام الآخر و يمكن أن نجمل تلك المتطلبات الضرورية في الأمن الغذائي الإستقلال التكنولوجي، الأمن القومي و الإندماج الإقتصادي والوحدة العربية... وهي مطالب يتقدمها شرط رئيسي خطير يتمثل في انعاش الشعور بالتمييز الحضاري و ذلك عبر تنشيط الذاكرة التاريخية و احياء التراث و تركيز أسس حركة ثقافية أصيلة في شتى أرجاء الوطن العربي تعتمد بطبعها منطلقات مفاهيمية وقيمية تتواصل عبر ممارسة حديثة تستلهم من التراث وتمنح هذه الثقافة أبعادها الأصيلة وقدرتها على دفع الواقع وتحريكه نحو منجهات

متناغمة مع روحه و مميزاته المضيئة و تجاربه الناجحة هذا التأصيل الواعي الذي لا يحول دون السير نحو المستقبل و استشراف المصير الأفضل أي قطع التبعية و خلق القدرة على التوحد، أو على درجة راقية من التنسيق بين الأقطار العربية المختلفة و الكف بالتالي عن الهدر اللامسؤول لإمكانيات تنموية كانت متاحة «ناهيك عن وزن الدين في السياسة الذي ما يغيب قرنا حتى يعود من خلال موجة سلفية استرجاعية أخرى تفوق سابقاتها حدة وعقما..

و يضيف سامح وهو يتلمس جيبه، و يسحب منه ورقة جديدة من حين لآخر وريقاته، ،وقد بدأ حديثه يلفت انتباه بعض الجالسين قريبا من المنضدة الواقعة في مدخل المقهى.. إن عملية التأصيل المطلوبة من شأنها التمكين من تجاوز حالة الاسترخاء و تعطيل الطاقات الدفينة في مجتمعاتنا و ذلك عبر استعادة الثقة في النفس و الوعي بقدرة الإنسان العربي على إنجاز نهضته و التعود بالريادة في شتى الميادين بدءا بسد ثغرات مجتمعه وتلبية احتياجاته المختلفة دونما حاجة محتومة للآخر.

جاء صاحب المقهى بنفسه يسأل سامح وضيفه عن الطلبات، ليلتحق به النادل الذي كان يركض بين المناضد.. طلب نجم قارورة ماء، واستطرد..

- كلامك واقعي يا سامح، و فيه تجذير فلسفي حضاري يهدف لتغيير الذهنية السائدة ففي معالجة مشكلاتنا و في النظر للنفس و في وصف الداء ومصادر الدواء...

- إنها الحلول الطبيعية لمشكلاتنا يوجهنا إليها العقل، المتحفز لجيل عربي متطلع إلى مواعيد تاريخية مع الإنتصار والتقدم، هذه الحلول النابعة حتما من داخل الوطن و القلب و الأمل العربي... انتظره

حتى أتم كلامه، ثم عقب..
- اسمح لي يا سامح، أنا أقدر كثيرا جديتك العالية، و لكن ما كان يتردد بشأنك على لسان الكثير من رفقائنا في المعهد، أنك كنت لا تتمتع بشبابك، لا تنزع للهو.. و تنسى نصيبك من الدنيا..
- أي شباب، وأي تمتع؟ بعضهم لم يفهم بعد معاني الشباب... الثروة... الثورة بأبعادها الجلية، جلاء الشمس في وضح النهار...
لقد رأيت الكثير يركضون نحو غايات غير محددة و هم يمنون النفس بالمزيد من البهجة واللهو والنجاح، لم يكن في أجندتهم جد ولا أي شعور بالمسؤولية.. قد تأكد لي فعلا أن البعض الغوا من حيث لم يدروا من أعمارهم ساعة الشباب و ربيع العمر ليدفنوها في أقبية شتى من الحزن و التشاؤم أو الغوص في أوهام الصهباء لتمضي هذه المرحلة الغنية بالطاقات كطيف حلم، بل كأضغاث... وما كان لهؤلاء أن يقبروا ربيعهم الذي بوسعهم استثماره في خدمة الآخرين وفي إثراء روضة الوطن المزهر ...
ورغم أن هؤلاء فئة قليلة شاذة نسبيا ولكن يهمنا جميعا أن نعمل على تجنيبها التهميش الإداري واللاواعي أحيانا...
يهمنا أن نعيدهم للحضيرة، ونبصرهم أن الشباب نقيض الغياب عن ساحات الفعل الذي ينشئ ويبني ويضيف... و إنه لا يعني بالضرورة اللهو والألعاب... و إن الأتعاب تمنح النفس لذة الشعور بالإنتساب...
فالشباب ... الذي لم يفهموه... و لم يحاولوا.. لأنهم لم يرغبوا لبس مرحلة المتعة الكبرى الفردية ... وانتهاز الفرص الذهبية، أنه طور النضوج و الوعي بالقيم الكبرى لنغم الوقت المتاح للتعلم و العمل الذي يشرف الشباب و يعطيه قيمة رفيعة تناهز القيمة المضافة التي يعطيها من جهده وقواه الزاخرة وإبداعه في كل الميادين ...

الشباب ليس بالضرورة تلك المجموعة من أبنائنا في عمر محدد... إنه كل الرجال والنساء والشباب والفتيات الذين يعيشون بالعمل والعطاء... و يسخرون من جهدهم و وقتهم ما يسهم في إسعاد الآخرين، ونماء البلاد ...

إنهم المتحركون في كل أرجائها عملا، يمشون في مناكب الأرض يبتغون الإنتاج و الإبتكار و إثراء حركة الحياة.. الشباب، يا سيد نجم... علي البلهوان النموذج المتفرد... والدرس المتجدد... ليتنا نلتفت له ونستفيد من تجربته وعطائه..

انظر يا نجم، ما كتبت عن صديق شاعر ومرب من الكشافة رحل مؤخرا في حادث مرور، تماما كما تلوعت بسبب رحيل أخينا رضا..

وفاء لك يا أخي
كيف تمضي
الحروف التي كنت ترسمها
صدقا وفاء
وفاء لك..
كيف أرسم قصة ود
طفولية جمعتنا
بكشافة
كنفحة قدس
خيوطا من الشمس
مثل الضياء
أنا يا أخي
واثق أن صوتك
القادم منا
حتما

يمكث فينا
فقد كنت «رمزي»
صمتت طويلا
وحين لفظت
عمر صوتك هذا الفضاء
وعبر صدقك
للطفل شبلا
تمشي إليه
إلى الكون
إلى الأبرياء
كمثل»»شابي»
كفورة فعل تغذي
عروق الشباب
ما كان في البال
أن تنطفي جذوة
تقتفي ومضة من سماء
هكذا كنت
فأنت ابتليت بحب عظيم
لكل الورى
لم تنحن
كذا ظللت تمشي مصرا
برغم العواصف
لا ترتضي الإنحناء
تزدهي الدنيا صديقي
بمن عاهدوا/صدقوا
أي ازدهاء

لا لم ترحل
رمزي
أنت ساكن في قلوب
كل الأحباء
لم ترحل
أمثالك لن يرحلوا
و»مريم» عندنا بدء لقاء
يباركك الله يا شاعرا
مسافرا
إلى حيث القمة الشماء
لعمري
أنت التوثب فينا
بلاغة صوت
ونار انطلاق
ونور حياء
وأنت
أصالة روح
وجدة فكر
وشوق مغامرة في الخلاء
كذا رحت
صمتا غريبا
تظل إلينا حبيبا
كما نذكر الشهداء
إليك صديقي
من الواقفين هنا
في انتظارك

سلام

ومني دعاء

- قل لي هل سافرت خارج البلاد؟

- طبعا، و كما تعرف لم أنشد اللهو والإستمتاع، إنني أستثمر الرحلات، فكما يقال سافر تجد عوضا عمن تفارقه.. و كذلك أنا أنظر إلى المجتمعات التي أزورها و أحاول أخذ العبر والدروس.. ففي البلدان المتقدمة صناعيا ظواهر أقرب للمفارقات العجيبة التي تشهد على تطور من نوع خاص يتجاوز الحد أحيانا لينقلب إلى الضد... في بلاد الغرب يعطف الناس على الحيوانات و يعاشرونها و يحترمونها و يهبونها من المال و الوقت و التضحيات ...

فللحيوانات قيم و جمعيات و الناس يحدبون عليها ويحمونها من متاهات الحرمان والضياع

و لا يذهبن فكرك بعيدا يا نجم، فلئن سنوا عيد الأمهات بالنظر لما شهدته مجتمعاتهم من جفاف مشاعر وخواء روحي وتجمد العلاقات الأسرية و حتى البشرية، فقد جاءت إحدى المحاولات لإنعاش الروح الإنسانية بين أفراد المجتمع الغربي، و مسعى إلى استرجاع شيء من الإنسانية في عالم تحكم فيه الآلة والمصالح وضغوطات الفرد وتجاه المادة والعصر...

و رغم ما يبدو أحيانا على تصرفاتهم و مبادراتهم من طابع سلمي و إنساني فإن علمهم لا يخلو من تناقض غريب و مخادع أحيانا، خاصة و نحن في عصر مفتوح وشفاف سقطت فيه الأقنعة و لا يتسنى اليوم حتى لفنيي الخدع السينمائية تضليل العين المجردة فما بالك في زمن الأقمار الصناعية وثورة الإتصالات

لقد زال عصر الإنبهار بالآخر المتقدم المتعالي، المتسامي إلى درجات الصفاء و السلام و الإنسانية، ففي كل المجتمعات روح مميزة و رصيد من التقاليد الخاصة بها التي لا يمكن أن تقارن أو

تفاضل بينها... و لا يمكن اليوم أن تكون وسائل الإعلام و الإتصالات أداة لتدعيم هيمنة شعب أو مجتمع و تكريس علوه الحضاري على حساب شعوب أخرى من عالم الدرجات الأخرى...

- سمعت أنك قمت بمحاولات شعرية،هل صدرت لك مجموعة..

- لي نصوص حول القضية الفلسطينية والواقع العربي..

- شعر التزام وموقف ورفض..كما تعودنا منك

- أعتقد إنها مسؤولية وعبء يتحمله المثقف والإعلامي وكلمة لا.. كما يقولون .. لا تجر... بلاء... هكذا تقريبا نردد في مزحنا اليومي الأقرب إلى الواقع و الحقيقة و لكننا قد لا نتقن قولها... و إعلانها في الوقت المناسب... و بالصورة المثلى...

أحدهم تساءل : لماذا ترغم نفسك على أن تقول نعم لشخص يجب - أخلاقيا ومنطقيا - أن تقول له لا قوية وحاسمة ! لماذا توافق على شيء لا تريده و إذا فعلته أوجعك و سبب لك خسارة أو حفر في أعماقك بئرا عميقة مليئة بحبات الندم وأحجار التأنيب واللوم؟...

صحيح أنّنا عادة نعزف عن قول لا لمسؤولينا في العمل نتجنبها لأنه لا يجوز... أو لأنّنا تعودنا ذلك أو لأنّ الأخلاق والأدب واللطف و واجب الإحترام المهني و... أشياء أعلمها وتعلمتها نقول نعم... بكل عفوية ووعي...

و كيف تقول لا... لمن لا يحبها أو لمن يأباها... أو لا تخشى أن يقول لك: يحسن أن تقولها إذا اقترحت عليك وليمة فاخرة أو دعوتك على قصعة...

إنّها كلمة متعبة حقا... قد يعذبك المجهود الذي تبذله لتقول لمن تعزه، وتقدره، لصديقك الحميم، لا، غير ممكن، غير طبيعي، لا أقبل، كلها كلمات قد يؤلمك... و تعجز حتى عن قول الحقيقة المرة...

وأداء واجب النصح والمواجهة الجريئة للمخطئ وان كان الصديق المقرب، المحبب... على القلب...
ومن المناسب كذلك أن تعرف كما يقول أحد الأخصائيين أن تعرف التوقيت المضبوط جدا الذي ينبغي أن تقول فيه لا... نقطة هامة تركز عليها مارلين موتز كيندي مؤلفة كتاب «أصل القوة» لأن الذي يقول لا في وقت تجب فيه الـ«نعم» يرتكب خطأ كبيرا، بل خطيئة كبيرة إذا كان الأمر متعلقا بسؤال حول جناية جرى فيها إتهام شخص بريء بارتكاب الجريمة... و من المناسب إذا اردنا أن نقول لا لزوجاتنا ألا نتردد في قولها... الا نسبقها بمقدمات إعتذارية مطولة ولا بالعبارة التقليدية التالية :
- أنا في الحقيقة لا أريد... هل سأتمكن من هذا أم لا... لكن إن شاء الله ربي يسهل... سأنظر في الأمر...
الرد التقليدي الذي نتلقاه عادة ويحول الدفة لصالحها هو:
- و لم التأجيل أشغال نناقشها... سواء... الموضوع لا يستحق كل هذا العناء... دعني أقنعك... لا تسع لإغضابي... بقدرة قادر أقنعك.
وهذه القدرة هي الإلحاح... هي (كلمة الصباح... وكلمة في العشية...) لا على دماغك حتى تتخلص منها بكلمة حاضر و «تكسب عقلك»...
عندما تريد أن ترفض موعدا أو شيئا أو شخصا، عندما تريد أن تقول لا... ابتسم بثقة وقلها.
- الحقيقة « لن أستطيع ! حاسمة فاصلة (وأنت على دينك).
بهذه الطريقة يستطيع الطرف الآخر أن يفهم انك أرض غير مستجابة وأنّك لا تقبل القسمة على إثنين وأنّك تعرف ماذا تريد وماذا يريد هو... أيضا !
لا - هي كلمة خفيفة على اللسان - ولكنها تحتاج لقوة وجرأة... و تبصر... و فن....

- ولكنك لم تحدثني عن الشعر..
- كثرة القصائد والإمضاءات الشعرية باتت اليوم علامة مميزة و قد تكون إرهاصة «مخاض» ما... فالشعر نهر مقدس من إبداع البشر يتحرك في مجراه الوضيء المضمخ من قطرات الوجدان، وينابيع النفس المترقرقة إحساسا عبقريا زلالا هو ذاك الشعر صورة متألقة مثل عين الطفل الغرير وهي جرسية الروح النابضة خيالا شعريا شفيفا تائها بين المهد والمجد... ومترنحا بين الثرى والعلياء...
إنّها نفاثة الإنسان يصرخ من لوعة شوقه على السماء... فمن تراه ينفي هذه الإيقاعية الداخلية المستمدة من علم الأبد المشكل لإبداع صفوة الأشقياء بحساسيتهم ورقة نفوسهم، من شعراء اليوم يناهض هذه الصبغة الأصلية للشعر؟؟
من يملك ذلك الميزان الذي يهب به الشاعرية وأحقية الشعر.. أن الشاعر لا يحتاج لمن يمنحه لحظة ميلاد و نشأة و الشعر ارق من أن يتعدى عليه اللصوص بانتحال صفة.؟؟
فالزمن وحده هو الكفيل بأن يحسم الأمر و يمد الطريق أمام أهل الشعر الصادقين الملهمين وأن قصر بهم العمر ولفتهم الأحزان واضطهدهم الناس.. و الأيام وحدها ستمحو أشباه الأقلام والأقزام العابثين بالكلمات..
الشاعر اليوم عندنا عظيم عظمة حسه و إحساسه و شامخ شموخ العلم والثقافة و الأدب في هذه الربوع.
لذلك لن يكون لرجل يرتدي قالب الشعر مجال و لن يكتب للواهين الخاطئين في عوالم الكتابة بغير شعر طريق و لا حياة.
- ربما يكون انشغالك بالكتابة الصحفية حال دون تكثيف تجربة الكتابة الشعرية..
- ليس بالضرورة أن تكون قصائد تحمل إمضاء سامح.. فأنا اشعر أنني كتبت قصائد أبي القاسم الشابي كما أحس أنني أديت كل

أغاني العندليب الأسمر.. وفاء لشاعر تونس الكبير وأديبها الخالد و إبنها البار أبى القاسم الشابي الذي ما تزال أصداء صرخته تدوي في أرجاء الوطن والوجدان، وبعد 60 عاما من رحيله تنتظم احتفالات كبرى، تسجل الذكرى، و تحيي الرجل، و تحمل المثقفين و الشعراء على جناح أغاني الحياة و الأمل، و الإرادة في رحلته تقتني أثر الشاعر الشاب الذي كان بحجم البلاد وعبادها وترسم من جديد قصائده.

و تستعيد معالم نموذجه الإنساني و الفلسفي و الأدبي و الوطني المتفرد، تقتبس من معينه لبسط أضواء تمهد سبلا تصل للمجد والعزة... و تهدي السالكين لمتجهات الإبداع و الإصلاح ... فالشابي قال و كتب... و همس و عاش ما عاش من أجل الحياة الحقيقيّة... و الشابي... شعر... و أنتج... فعل بصوته... حتى أعيت قلبه الأوجاع و الأشجان و الآلام...

و رسم إسمه دماء سطرها وخطها... و لم تمح حروفها الأعوام... و حفر في قلبه قبل أن يبث أناشيده لتمسح كل الدنيا نفثات صدره...

وفاء لرجل طلع من الأرض... متجذرا... سامقا و متطلعا إلى الشمس...

وفاء لشاب نزف رحيقا أهداه لشعبه... و لم ينتش وفاء له يتجمع كل الشعراء و كل أحباء الكلمة التي تطلع بشكل الجرح والورود... و تنبض مع قلوب لا تهدأ حياة... تستعيد تونس ذكراه... و تجدد معه الأجيال العهد على تسنم الجبال... و ابتغاء العزة بإرادة الحياة...

- تبدو منظرا لشاعر تونس الملهم الفذ..

- فعلا أنا أحس بمدى عبقرية هذا الرجل الذي صدح و شدا أملا و ألما، و رحل في عمر الزهور.. لقد بهرني بمعاني الإباء و الكبرياء و العزة الطاغية على همساته، المتراوحة بين القوة

و الإعتداد بالذات، و الحساسية و رقة النفس و الشعور بالغربة و القسوة.. هو ببساطة شاعر تحدى الظلم، و عاند القهر، و استمر واقفا مثل الطود، مثل قلمه..

و من وحي ملحمة الشابي أقول لك يا صديقي، أن تعيش بعزتك و كرامتك هو أن تمارس ذاتك و أن تتكلم في عصر حروب المعلومات و الإتصال الاصطناعي قبل مرور الثانية، و الرسم بالليزر، أن تقول ها أنذا، ليس بتجاهل التقدم اللامتناهي، و التشابك المهول للغات و الأفكار و المفاهيم الثقافات.. أن تكون لك فلسفة بسيطة أو معقدة فيها دمك و روحك و حسك و نفسك.. أن تكون لديك الخيار.. أو أن تتمرد على لعبة لم تحتسبك في قواعدها و لم ترسم لهواك و هويتك موقعا.. أو أن تبدأ من حيث ترى المبدأ.. و أن ترفض أن لا يكون في حياتك مبادئ..

أن تحيا هو أن تمتلئ رئتاك بهواء الاعتداد بوعيك، و فكرك، و أن تدرك حقك في التميز، في أعمال رأيك، وتبني رؤيتك وتوجهك.. أن تكون ما تشتهي و تأبى أن تمحي بصمتك، و تتلاشى الوانك نبضات عروقك الصاخبة بالحياة تحلف بقيمك أن لا قمة أعلى من هامتك، و أنّك أسمى من أن يضيع إجتهادك هباء.. أو أن تعبث بك رياح خرقاء و أنّك أنت.. إن شئت.. إبن الأمس واليوم.. في عامك الجديد.. المستقبل.. محب للحياة، معتز برسوخك بشخصك و شخصيتك.. برجولتك.. بصلابتك في الحق.. ما أجمل أن تبدأ عامك الجديد بإصرار جديد على مزيد الوضوح مع نفسك و العالم.. على ضرب الأرقام القياسية في الصراحة والصدق وخنق الكذب فيك، و مراوغة النفاق و إقصاء التزحلق و.. أن تعيش واقفا.. كرجل لا يموت إلا واقفا..

- من يسمعك يحس أنك تتحدث من برج عاجي، كأنك لا تمشي مع الناس و تسمع ما يبث و تقرأ ما يقرأون اليوم..

- و لكنني صحفي و مثقف، أدعي ذلك واثقا.. فالواقع السائد ليس مبررا لمجاراة تيار الرداءة.. ما هو موقف المثقف و المبدع الحقيقي و رجل الفكر النقي الرشيد في تيار الرداءة الذي أعلنت الإنتساب له السماء «والنجوم» جهرة ما هو رد فعل الإعلام، المراجع، و أركان الثقافة إزاء ما يروج عبر بعض الأجهزة و في مقدمتها الشرائط والكاسات من تفاهة محسوبة على الفن، ينبغي أصحابها الإنتشار و ضمان الاستهلاك و موافقة إيقاع الشارع و النزول إلى المستوى الوضيع من التعبير عن أشياء حياتنا اليومية بتفاصيلها الشاذة و المستهجنة فنا و ذوقا و أخلاقا..

تسأل الحياة أين المثقف، المفكر و المبدع من مثل من يقدم على هذه التفاهات الفنيّة - غناء و.. الأشبه بالهباءات التي يحسب بعضهم أنه يواكب بعرضها العصر، و موجاته المستجدة و العصر منها براء، و يتوهم أنّه يخاطب الناس بلهجتهم، و يقدم لهم هويتهم و آمالهم و آلامهم على طبق فني خفيف على طريقة الساندويتش الخفيف على المذاق و الهضم و الجيب

إنّه سؤال محيّر يطرق الباب بعنف و لا يجد في الغالب مجيبا يحترم نفسه و يجرؤ على الخوص في درك الإستهلاك و السهولة ابتغاء للسيولة...

ولكن قد تحاصرك نقاط الإستفهام الأذن و الوجدان و تمارس عليهما القمع و التعنيف بعدد محلات الأشرطة و المتأجر التي تروج ما سهل بثه من أشرطة تلفت الأذن و العين و الجيب و سامح الله المنتج إلى.. المستهلك(!).

- صدقني، إنني أستمتع بحديثك، إنني أستحضر مواقف كبار الأدباء في مطلع القرن العشرين، و كأننا نتجول في زقاق المدق و نثرثر مع نجيب محفوظ في مقهى خان الخليلي بالقاهرة..

- وقد كان كتاب «ثرثرة فوق النيل» ضمن إحدى الجوائز المدرسية التي نلتها في أعقاب السنة الدراسية الختامية بالمعهد.. و قد جلست في أحد مقاهي تلك السوق المزدحمة خلال رحلتي للقاهرة السنة الماضية.. و لكنني لم ألتق بنجيب محفوظ مباشرة..تعرف يا سي نجم أنا معتز بانتسابي لهذا البلد المتفرد حقا، و كما تعلم فقد زرت عددا من البلدان، وعاينت نماذج من بؤس البشر في ظل الحرب و غياب مقومات الأمن و الإستقرار، فلو علم بعضنا ما يعانيه الناس في بعض أصقاع الدنيا من ويلات الجوع وعدم الإستقرار و الصراعات المدمرة جنبنا الله مآسيها لو أحسوا بما يعيشه المهاجر المغترب من ويلات و آلام و حرقة و متاعب لا حصر لها من جراء البعد عن أرض الوطن...

لو يعلم البعض ما يعنيه الوطن الذي صاغ مجده الشهداء وصنع مفاخرة و مآثره الرجال المخلصون الذين صدقوا ما عاهدوا عليه الله و الوطن... لو يعلمون ما يعنيه انتسابهم لهذه الأرض الزكية لا استكثروا من حبها... فهذا الوطن أغلى، و أعلى من كل قيمة أخرى، إنّه مصدر من مصادر الأمن واحد لأسباب سعادتنا التي يحسدنا عليها بعضهم...

و هذا الوطن يرفع أبناءه... و يمنحهم معاني العزة و يزودهم بأروع معاني العزة و يزودهم بأروع شعور يعيشه البشر...

إنّه مدرسة كبرى مفتوحة لكل من أنجبتهم و لقنتهم حبّ الحياة بعزة و كرامة و البحث عن صيغ جديدة للإضافة و العمل على تدعيم ما حققه جيل التحرير لتعزيز صرح البلاد والمشاركة في إعلاء شأنها بين الأمم...

ما أروع أن تتخرج من هذه المدرسة الفريدة التي تنشر النور في الصدور، و تبث أمن الإيمان و تزرع في الناشئة حبّ الأرض، و قوّة التجذر في أعماقها فهذا الوطن... الذي يجمعنا يصنعنا

و يصوغنا ويلهمنا أن نصون ذواتنا من خلال الوفاء لما تلقينا من دروس لا تحصى ... في مدرسة الوطن... أجمل الأمنيات وأحلى الأغاني..

هوى وطني ونور زماني
سنى في السماء
و بدر يضيء كياني
أنا يا بلادي، بحبك، أولد بكل أوان
أجدد عشقي إليك، وفاء
بكل افتتان
و تنبض كل عروقي، هوى، يسري في شرياني
هوى وطني
زلزل فلول الذل والخذلان
وعمم في مهجتي
صدقي، و شوقي، و كل امتناني
أتونس، أنت الهوى الأكبر،
أملي أنت، وكل الأماني
أجيريني منك، فإن الهوى ألهب شوقي لك باحتضاني
أنا مستجير ببحرك الأزرق الدافق من غابة السنديان
سبتني رؤاك الوضيئة فجرا، شذا قيرواني
تتوق ضلوعي لبنزرت، ثم إلى جربة و بنقردان
و تهفو لسوسة، و ساحل في طبرقة، مرجاني
تحط بسليانة، و القصرين، ثم إلى زغوان
من أين لي نوم الرضيع و غفوة الوسنان
وطيف الخضراء،نسائم تداعب أجفاني
أنا الطفل الذي التمس الدواء،
من فرط وجده، يعاني

يا لوحة خضراء في عينيه..
من صنعة الرحمان
صاغت قصيدة حبه العذري الصافي،كالإيمان
كوني له الترياق، إنه ذائب، هوى، متفاني
هو يرجو وصلك منة، جودي عليه
و ذاك غاية الإحسان.

- ما أروع الشعر الصادق، حقا أروع الشعر أصدقه، لقد مضت ساعة و نصف كأنها دقائق..
- و لديك التزامات قاهرة.. و مستعجلة.. كالعادة..
- بالفعل..
- موعد مع عزة.. مثلا..
- لا، و من تكون عزة؟ ربما تقصد تلك التي كانت محل سخرية الزملاء مني أيام الدراسة، لا ليست زوجتي الآن، لقد تزوجت زميلة و هي تعمل معي في الجامعة بالمملكة، و هي في انتظاري الآن لنزور عائلتها في تبرسق.. سمعت من أحد الأصدقاء أنك بصدد الإعداد لنشر كتاب، لا تنس صديقنا الراحل..
- بكل تأكيد.. أعرف أنني أثقلت عليك بقراءاتي و نصوصي..
- على العكس لقد أمتعتني، أنا سعيد لأن لي من زملاء الدراسة صحفيا أديبا.. هذا عنواني إن شئت أن ترسل لي نسخة من إصداراتك القادمة.. أرجو لك كل التوفيق..
- ادع لي عندما تكون في الحرم.. هاك مسك الختام.. مثلا ما كتبت عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم..
صادقا أعلن حلمي
حالما أحنو علي

عاشقا أرنو لصحبي
أهمس همسا النجي
أسطر روحي قصيدا
أعلن صمتي علي
ليتني من قلبي أحيا
أمتطي.. أمضي إلي
أرسل شوقي سلاما
يعتليها مقلتي
أرفع من قلبي شوقا
من أعماق خافقي
يعلن حبا شفيفا
للرسول العربي
أحلم أحيا بـ «سنة»
أقتدي.. مثل «علي»
ألتقي نورك بدرا
يهدي سيري الدنيوي
من فؤادي أحيا فيها
قبسة النور البهي
إنني أرجو بمن
يفتديه كل حي
أحيا لأحمد صدقا
كل ما في وفي
هذا حلمي يا صحابي
حبه يسكن في
هذي روحي تفتديه
هذا قلبي في يدي

هل أراني في الجنان
بالحبيب ألتقي؟
سعد قلبي إن رآه
عند الحوض الكوثري
هاك روحي فاتخذني
خادما أو بعض شيء
أسأل الله القدير
يسدل العفو علي
ويناديني الضياء
أقتفي الخطو السوي
أرتقي درب الفلاح
ذاك ما سواه لي
ثم يهديني لقاءا
بالشفيع.. سرمدي
هكذا حلمي: أراني
راجيا.. ألقى النبي.

- صلى الله عليه و سلم، أرجو أن نكون من المشفعين و المقبولين عند حوضه، سأدعو الله أن ييسر لك عمرة أو حجة..
- ذاك أعز أحلامي، أراك بخير..
- إلى اللقاء..

ودع سامح صديقه نجم، دلف إلى حانوت الحلاقة، لاحظ أنه مكتظ بالزبائن فواصل الطريق إلى الشاطىء.. غير وجهته من صالون الحلاقة إلى مدى أزرق متوسط. انتابته رغبة في السير إلى البحر، قابلته زرقته اللازوردية، أحس و هو يسير متثاقلا إليه بنوافذ قلبه تنفتح، و روحه تشرع على المدى، تنفس بعمق أحس أنه

يستنشق الطفولة، أيام كان يركض هنا و يرحل كالريشة في الأفق البعيد، أطل خياله على المحيط الأزرق.. فذكرته الموجة السائرة في مدها و جزرها، بقولة لعمة مسنة كانت تقول إن البحر يسبح لله مرددا بلا كلل، لا إلاه الا الله و الرجوع لربي..

أحس أنه يمتلك الفضاء، داعبته الشمس، تملكته رعشة خفيفة يا لله، ما أروع الحرية، ما أجمل الحياة و السير في مسرب لا يلتوي، لا خطر لا حدود في آخر المسار.. أرسل مجددا بصره يسائل العباب، رأى عن بعد ما يشبه النورس الغريب يسير فوق البحر.. يا ليتها تكون قافلة سنونوات تحط عن قريب تبشر بموسم الآمال، أحس أن نبضه يحرك التاريخ و أنه يملك بلا رقابة تسريع مد الرؤيا، و أن حلمه القديم يمتد خارج المكان و الزمان.. حبة من رمل في خريطة البشر.. أطلق نهدة، و قبل أن يلتفت أحس ببسمة و ديعة تنطلق من وجه ملائكي مشرق المحيا، كان ابنه الصغير تقدم العائلة السعيدة، هاهي ذي جاءت ملهمة الكلمات مصحوبة ببعض ما تخيل وصاغت الأقدار، أبناؤه الثلاثة جاؤوا يذكرونه بعيد ميلاد اقتحامه القفص الذهبي.. عشرون ربيعا مرت الآن.. شاخ الزمان و روحه بعد كالريشة في مهب النسائم الربيعية الندية.. نسائم الأمل المتجدد مع كل فجر وليد..

سليمان بن يوسف

- من مواليد مدينة حلق الوادي في27 مارس1965
- التعليم الابتدائي والثانوي في حلق الوادي
- التعليم العالي :صحافة وعلم الاجتماع.
- زاول مهنة التعليم لمدة سنة واحدة في ريف الفضول بمكثر
- بعد تجربة اولى في دار الانوار سنة 1985 التحق بجريدة العمل سنة1986 وهو محرر ب"الحرية"وصحفي محترف منذ سنة1987
- التحق بديوان وزارة البيئة والتهيئة الترابية-سابقا- البيئة والتنمية المستديمة -حاليا- منذ بداية اكتوبر 2001 كملحق صحفي، و أسهم في هذا الإطار في إقامة دورات تكوينية و أيام إعلامية و زيارات ميدانية للإتصاليين .
- نشر مقالاته في عديد الصحف و المجلات على غرار: بلادي، الجيل الجديد، مجلة الاذاعة والتلفزة التونسية، الفلاح، المراة..

• انتج في الاذاعة الوطنية منذ جانفي 1988 منوعات و برامج للشباب (على جناح الامل، فضاءات و آفاق) و سهرات ليلية(ابحار،عبير الاوتار..)
• نشط في التلفزة برامج و منوعات من بينها: شباب 90، الطفل ومحيطه، آفاق، مشاغل الشباب(1993)
• قدم على امتداد سنوات 1999، 2000، 2001 فقرة الجمعيات والمنظمات و الباحثين في البرنامج الخدماتي التلفزي اليومي"لكل الناس"من 1999 إلى 2001
• شارك في فضاءات التفكير بالتجمع و في لجان الإعداد لبعث إذاعة وقناة الشباب.
• صدر له عدد من الكتب: همسات على جناح الامل، حديث النجوم، البحث العلمي التنموي في تونس، ضفاف الابداع، كلمات للحياة طبعة اولى (1999 و طبعة ثانية 2003)، المشهد الجمعياتي التونسي الراهن و الرهانات (مصحوب بقرص تقديم الاستاذ محمد قديش) شهادات و خواطر، افكار في دائرة الضوء، حوارات صحفية جدا ج1. مكاشفات، تونس الذاكرة المتجددة، احلام الفتى الحائر، اقولها شعرا بكل اللغات (شعرفي 20لغة)ضميرنا البيئي، كيف أنسى(شعر)، خطوات من الإعلام إلى الإتصال البيئي.

• حصل على وسام الاستحقاق الشبابي الصنف الرابع (سنتي 1990 و 2002) و وسام الاستحقاق البيئي و عديد الشهادات و الجوائز الوطنية.
• شارك في دورة تكوينية حول الإعلام و البيئة برلين2000، مثل تونس في مؤتمر دولي لمنظمة التعاون المتوسطي حول الجمعيات والتنمية المستديمة، اثينا أفريل 2002، و ملتقى حول الأجندا 21 المحلية باسبانيا مدريد 2003، و ملتقى حول الوجهات السياحية المستديمة مدريد2005، و دورة تدريبية حول الحملة التوعوية للإقتصاد في الماء دمشق2006.

الفهرس

شكر خاص

السيد محمد عادل الهنتاتي لنصحه وتوجيهه

المبدع الروائي و الناقد حسن بن عثمان لجهده الكبير في كافة مراحل العمل و التشجيع والتقديم المميز.

الصديق الأستاذ نبيل علي لمساعدته في الإنجاز الفني.

بريد إلكتروني
anaminkom@yahoo.com

ISBN
978-9973-0-0015-6

Montage, Réalisation & Impression



Société Info Buro
Centre d'Impression & Tirage de Plans
Immeuble 7000, 10 Rue 7000, 1073 Montplaisir
E-mail: infoburo@gmail.com - Tél. & Fax: +216 71 286 234



عبير الدفلى

رواية

للكاتب: سليمان بن يوسف

تقديم

حسن بن عثمان

.. نص حميمي يتنكر في زي رواية و ينتحل جنسها. مثلما يتنكر سليمان بن يوسف في شخصية سامح بن يوسف و يباشر النبش في سوانح من الذاكرة وشمت على الجسد و حددت المسار و شكلت التجربة الذاتية لصاحبها. و في ذلك بعض فيض من سيرة بلاد. اجتماعيا و سياسيا و ثقافيا و فنيا. كل ذلك مع العمل المتفاني لفتح كوّة عاى تجارب في الصحافة و الإعلام و الثقافة و الوعي السياسي ..

ISBN
978-9973-0-0015-6

الطبعة الأولى - أكتوبر 2007